رجب مفتاح بودبوس

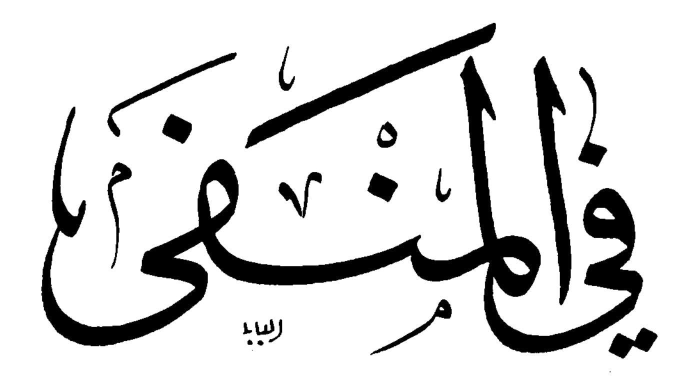
في المنفى

منشورات
مكتبة قورينا للنشر والتوزيع
بنغازي - ج.ع.ل

خالد علي بورقيبة

في المنفى

خالد علي بورقيبة



رجب مفتاح بودبوس

منشورات
مكتبة قورينا للنشر والتوزيع
شارع عمر المختار - بنغازي ج.ع.ل
هاتف ٩٢٤٨٣ ص.ب ٩٥٥

الطبعة الأولى

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

المقدمة

* إذا كان المفهوم عن القصة هو تنظيم احداث يفضي بعضها إلى بعض منطقياً ، فإن هـــذا النوع من القصة ــ ان كان له وجود ــ فهو في ذهن الكاتب ، ان الكاتب يتدخل بسلطة تنظيمية قاهرة للربط بين احداث لا تخضع إلى قانون ، ان الواقع غير مترابط والاحداث بالنسبة لبعضها البعض غير معقولة ولا منطقية ان المعقول والمنطق هو من عندياتنا .

اما إذا فهمنا القصة على انها تعبير عن الواقع قبل ان يدخل فيه العقل من عندياته تنظيماً يخضعه له فإن هذا العمل اذن قصة ، انه عمل يترك فيه لشخصياته الحرية إلى آخر كلمة كي يلغوا مواقفهم الأولى ..

صحيح ان هذا العمل اقرب إلى يوميات كير كجورد، أو يوميـــات ميتافيزيقية لجبريل مارسيل والغثيان لسارتر . وأيضاً زاردشت لنيتشه ، انه قريب إلى هذه الاعمال للنزعة الفلسفية الغالبة عليه ، ولان التكتيك يكاد يكون واحداً ، ان الرباط الوحيد الذي يوجد بين فصول هذا العمل واحداثه هو القائم بالعمل ، اي الفرد الشخصية الرئيسة التي اقدم كل الاحداث بالنسبة لموقفه منها ، وهو يمر باربع مراحل الأولى البداية التي تبدأ بوعيه لوجوده الخاص . وموت صديقه . وشعوره بالغربة نتيجة اختلاف مفاهيمه عن غيره من الناس ، وهو في الطريق إلى المنفى التقى بفتاة اثارت في ذهنه التناقض

وصاحبته حتى أبواب المنفى ثم قذفت به بشدة في منفاه وولت على عقبيها ، وفي هذه المراحل الأربع أحلل موقف هذه الشخصية من المجتمع ، والاخلاق السائدة ، والحب عندما بدأ يتسلل اليه ويجعله يتلكأ على أبواب المنفى ، ثم الفشل النهائي الذي قدف به إلى المنفى ، وهذا الفشل مني به لاسباب لا معقـــولة ولا مفهومة لانها واقعية ، .

وهذه الشخصية ليست بغريبة ، انها شخصية شباب هذا الجيل , الذي يحق في ان أسميه الجيل المأساوي ، فهو يحمل في نفسه مأساة التناقض ، فهو من حيث مولده ينتمي إلى القديم ومن حيث ثقافته ينتمي إلى الجديد ، ويثور على القديم ولكنه في نفسي الآن يثور على نفسه ولقد حق لي ان اقو ل انني استطعت ان اصور هذا التناقض الذي يعيشه الشباب لأنه لا شيء اصدق من شاب يكتب عن الشباب ، منفيٌ يكتب عن منفيين .

رجب مفتاح بودبوس

بنغازي

١٥- يناير - ٦٩ م

(*) جائزة وزارة الاعلام لسنة ١٩٦٩ م .

البِدايَة



(١)

حمى في شرايني ، حرارة تسري في دمي ، ارتعاشة تطوف بجسدي احساس يهتف في أعماقي : انا موجود .. !

ما معنى هذا العبث ! .. ولكنها كلمة تضيع في الهواء ، وتتسع موجات صوتية ، ثم تتلاشى : موجود .. ! تلك الكلمة الوحيدة التي تفصح عن حرارة الدم في عروقي ، انتفاضة شراييني ، ذلك الفراغ الذي يلف رأسي ويتسع في صدري ، واصاب بالذهول ، وقد افغر فاهي ، واشعر بشعور المقبل على خطر داهم ، اذ ينتصب العدم أمامي : موجود .. !

وهل اتيت امرأ ذا بال حين اكرر على نفسي هذا ؟ .. ان هناك الافاً يتصرفون في الموجودات بنوع من الثقة العمياء ، يشكلون اشياء ، ويعدمون أخرى ومع ذلك فسيسخرون مني اذ اقول لهم : أنا موجود ..

انه العبث في رأيهم . فالوجود أمر بدهي ، وسوف ينظرون إلي بدهشة ، ويتبادلون النظرات بعيون زجاجية عكر صفوها كلامي ، وسوف يومىء بعضهم برأسه : مسكين .. !

وسيغادرني بعض آخر كانما ضحكة لا تلبث ان تنطلق : يقول إنــه موجود .. !

كنت انقل الخطر مرهقاً ، وكانت برك صغيرة تنتشر في الطريق عقب

المطر ورائحة التراب المبلل تصلني قوية حـــادة ، واناس يهرولون تسبقهم رؤوسهم إلى الوسائد ، وسيارة تمرق بجانبي فتبللني بمياه متطايرة ، وطفل يلعب في احدى البرك ، يغوص بيديه في الوحل ، عذراً انه لا يعرف معنى الوحل بعد !

واعقد يدي خلف ظهري ، وقد بهرني ذلك الاكتشاف الهائل ، وأسير متباطئاً .

كنت في حديقة الكلية ، وكوب شاي في يدي ، والصمت مخيم اذ كان الوقت مساء ، ونسمة خفيفة تحتك بأوراق الشجر فتحدث صوتاً مفزعاً وتزيد في الوحشة حولي .

وفجأة .. ! وما بين كوب الشاي والسيجارة التي تحترق احذ بخناقي ذلك الاكتشاف الهائل : موجود !

كنت كمن توصل إلى حل مسألة معقدة ، وكنت فرحاً بهذا . فبالرغم من أني لم أفكر في تلك المسألة الا انها تهمني جداً .

بعض سينظر إلي هازئاً : حسن .. لقد بلغت الرابعـــة والعشرين ثم اكتشفت فجأة انك موجود !

وسيقول لي الآخرون وقد انتفخت أوداجهم : موجود .. قديمة .. الم يبرهن الفلاسفة جميعاً على هذا ؟ الم يضع ديكارت الكوجيتو ؟ الم يضع هيجل الديالكتيك الم يتعب افلاطون في تخيل عالم مثل ؟ فماذا صنعت ايها المغرور ؟ جلست تحتسي شاياً ، وتنفث دخان سيجارة ، فوق كرسي تحف به الأشجار ، وصمت المساء حولك يلف كل شيء ، لتخرج بهذا الاكتشاف : موجود! لقد ضيعت اذن حياتك الماضية .. !

هل اضحك ؟ او ابكي .. ؟ او افعل الاثنين معاً ؟ فثمة خيط دقيق شفاف يفصل بين الضحك والبكاء ، واحياناً ليس الضحك إلا نوعاً مـــن

البكاء ، وليس البكاء ، إلا ضحكاً غير مباشر ، وكان بودي أن أجيبهم : نعم لقد ضاع ذلك الجزء من عمري ، ولكني فرح بالباقي منه ، أما انتم فقد ضيعتم كل شيء ، غير ان ذلك لا يفيد فلقد تحجروا .

انا لا احتاج إلى كوجيتو ديكارت ، ولا ديالكتيك هيجل ، ولا عالم مثل افلاطون ، ديكارت « انا افكر اذن فأنا موجود » لا أستطيع ان اقولها بنفس القوة التي كان يرددها بها ، كانت الفكرة قد تغذت من لحمه وامتصت دمه ، كان وهو يكتبها ليرسلها إلى القساوسة يباركونها ينتفض ربما رعباً من فكرة « انه موجود » وهكذا هيجل ، وافلاطون قبله ، ولكن ! أبرهنوا على أني أنا موجود ؟ هذا ما يهمني !

كان الناس يحتضنونني ، ويحدقون في دهشة لأني لا أبكي ، وكنت استرق الخطى لأنام على جثة أبي القابعة في حجرة جانبية . وكنت اعاني نوعاً من الفرح الديني اذ اصبحت محط الانظار ، اكتسبت وضعاً ذا امتياز ، موقت ، ولم أكن افهم اطلاقاً ما معنى ان يموت أبي ، كنت اسأل فيجيبونني انه نائم فاعتقدت هذا ، مجرد اغفاءة اطول قليلاً عن ذي قبل ، وكنت اتسلل لأغفو على صدره ، ولم اكن أعلم انه ليس بعد الاكومة من المواد في طريقها إلى التحلل وكان المرعب في الأمر انني الآن وبعد أربع وعشرين سنة اكتشفت الأمر : لم يعد موجوداً بعد ! وهذا الجزء هو الذي ضاع من عمري .

كانت الفكرة ترعبني : ان أمّحي تماماً ، وجعلتني اسهر لياليَ عديدة وأوشكت احياناً ان اقتلعها من جذورها : ينبغي ان أؤمن بحياة أخرى لكي اسعد في حياتي ، لكي لا أفكر في العدم النهائي .

وأوشكت هذه الفكرة ان تستولي علي وان تضمني إلى قطيع التائبين بعد شرود طويل ، ولكن ذلك المساء ، ولاغصان تداعبها الريح ، وكوب الشاي في يدي ، والسيجارة ترسل انفاسها محترقة بين اصابعي : تكشف لي الوجود ..

وصرت أحدق امامي فلا أرى شيئاً ، وطنين ينبعث في رأسي ، وهوة تواجهني عميقة القرار اسمع داخلها اصداء مبهمة ، ووجدتني ويدي تضغط على الكوب ، والسيجارة تحترق حتى تصل الى اصابعي : انا موجود .. !

عندئذ كان التراجع مستحيلاً ، وكان ذلك الاكتشاف يعني اشياء كثيرة ، كنت كمن سيعيش يوماً واحداً وأمامه عدة أشياء يريد القيام بها . كان عليه ان يختار بسرعة ، وبأكثر صميمية ، وان لا يؤجل شيئاً ، ذلك الذي سيعيش يوماً واحداً هو أنا .. ! يوماً واحداً .. ! ليس ثمة فرق بينه وبين مائة عام ، ولكنني لن ابكي ، لن العن القدر ، لن اقف مكتوف اليدين .

ان اليوم الواحد يعني اليأس ، ولكنه يأس من نوع آخر يدفعك لأن ترمي بآخر ورقة دون وجل أو تردد ، وهكذا رميت بـآخر ورقة : سأعيش حياتي !

وعندئذ اصبحت في غربة

غربة ... !

ماذا يقول الآخرون من حولي ؟ انا لم اعد افهمهم ، لا أفهم ما يقولونه ولا ما يفعلونه ، احدق فيهم عن بعد : انهم حجارة .. اشياء .. اشجار كل شيء إلا بشر .. انا لست منهم .. ولن أكون منهم ... انا موجود .. !

لا استطيع ان اسايرهم في سلوكهم ، انه امر لا يعجبني ، ولا ان اتكيف مع الأوضاع بالسرعة التي يتكيفون بها ، انهم يذكرونني بالصلصال في حجرة الاشغال بالمدرسة الثانوية القديمة ، كان المدرس الأصلع النحيل جداً حقوداً ، وشرساً وكنت اكرهه لانه صفعني يوماً دون ذنب ، وكنت اصنع من الصلصال شكلاً شبيهاً به ثم اخده في قبضتي فأسحقه سحقاً .. يا لهذا الصلصال ! يا لهذه الصراصير المذعورة : ليس ثمة ماتخافونه .. انهم لا يعون وجودهم فالاشياء والاعمال تأخذ وقتهم كله . زيارة يقومون بها ، عمل اضافي يدر قروشاً أكثر ، طفل بائس من اطفالهم مريض يحتاج علاجاً ووقوفاً

في صف المرض الطويل ، اطفال يريدون غذاء ينبغي شراوُه ، فواتير المياه ، فواتير النور ، وإلى جانب مشكلات آلة اللذة اعني الزوجة تلك الآلة العجيبة التي تقايض شيئاً بشيء ، حماية ، منزل ، تلاجة ، سيارة .. طعام .. ملبس.. نزهات ومقابل هذا للزوج نصف ساعة جنس ! انها رابحة ، اربع وعشرون ساعة مقابل نصف ساعة ، أربع وعشرون ساعة عمل لتوفير سروط العقد ، ونصف ساعة مقابل ذلك يسقط بعدها الزوج اعياء ليتمتم بينه وبين نفسه : المرأة أحط مخلوق .. ترى لم خلقت ؟

ولكنه لا يقول هذا الا في لحظة سقوطه مجهداً .

فإذا كان الصباح ، حدق فيها برغبة جديدة ، وخرج يكرر يومه الذي لا ينتهي ، هؤلاء ، إذا استثنينا مشكلاتهم الاخرى الصغيرة كوشاية عند رب العمل أو فوز فريقهم في كرة القدم ، واستثنينا انهم ينظرون إلى النتيجة ليعطوا لأيامهم اسماء ، فانهم يعيشون يوماً واحداً ، في آخره يسقطون بلا حراك .. وللأبد .. ولا كأنهم مشوا خطوة واحدة في شوارع بنغازي .

انا لا استطيع ذلك ، انا مفلس تماماً ، لن اعقد صفقة خاسرة ، على الأقل لنكن شركاء !

ومع ذلك فهناك امر ادهش له ، بل واكاد افغر فاهي عجباً ، ثمة أمور يفعلها هؤلاء معاً ، ففي الوقت نفسه هناك عقود تعقد ، وشيخ يضع (قزازات) على عينيه ، يكب على ورقة وهو يكاد يلتهمها ، ثم يوقع في نهايتها ليصبح كل ما كان حراماً حلالاً .. وهناك بائع وشار جالسان بالقرب منه :

— هل بعت يا سيدي ؟

وينطق عجوز آخر ووجهه الاسمر ترتع به شعيرات بيض ويقول :

— على سنة الله ورسوله .

ويلتفت الشيخ إلى الآخر :

— وهل قبلت :

وتعود الإسطوانة :

ـ على سنة الله ورسوله .

ومع هذا فعلى الفراش ستكون سنة الشيطان ، وتلك الورقة سوف توضع في ادراج المحكمة الشرعية . والأمر كأنه ليس ثمة حاجة اليها على الإطلاق ويلتقي الاثنان ، وليس بينهما حلال ولا حرام !

وهناك أيضاً موتى يدفنون ، ونفس الكلام يكرر ، وانا لا أفهم هذا الكلام فسيان عندي « عقبال عندك » أو « البركة في رأسك » الم اقل لكم أنا لا افهم .. لا أستطيع .. لأن هذه الامور ليست من عالمي ، عالمي وجود عارٍ مباح باجمعه . محرم باجمعه ..

انا في غربة ...

الدهشة تأخذني وانا ارى هؤلاء نماذج متماثلة، قوالب قد صبت جيداً منذ الميلاد ، .. لا تفعل هذا ! ويحفظ ذلك جيداً ليكرره وهو متحصن بوقار الشيخوخة : افعل ذلك ! .. وحتى القبر يوضع أحدهم في كفن ويلف بطريقة معينة ثم يشمم التراب ! .. التراب !؟ ما معنى هذا ! ؟ ! ألم يمت ؟ .. هل يشم الميت التراب أو غير التراب ؟ ! .. عذراً أنا لا أفهم .. !

أنا لا أفهم لذا فأنا في غربة .

عالمهم نظموه بشكل عجيب ، تواضع اغلبهم على ان يعيش عبداً مقابل أن تتاح له حاجته من الطعام يسد بها رمقه ، وامرأة يأوي اليها إذا جنّ الليل . وبعضهم الآخر يقامر بحرية الآخرين المسلوبة فيفقد حريته ، اما انا فلست سيداً ولا مسوداً .. انا حر .. وجودي حريتي .. حياتي اعيشها بالطريقة التي تعجبني ، ولكن ما يعجبني يوصم بأنه شاذ عن القطيع ، انا شاذ ـ إذن كلما اتيت امراً مارست خطأً في نظرهم انهم يذنبون في حريتي .. وجودي . لا استطيع حفظ قائمة ما حلل وحرم. لا استطيع حفظ قائمة المباح والممنوع ، انا لا افهم هذه الاشياء وهم .. ! هم يؤدونها بكل بساطة وكأنها وجدت

معهم ! عندما كنت طفلاً في الخامسة من العمر اذهب إلى الكتاب ، واحفظ القرآن ، وهناك في (الخلوة) الفقيه ينتصب ؛ (الفلقة) في يد والسوط في الأخرى ، ينتصب بيننا كالقضاء والقدر ، عيوني على اللوح ، واشعر بالتهديد من خلفي وفوقي ، ولا أدري من أية جهة سيلسعني السوط . كنت في رعب دائم ، وهناك الفلقة ! ويوم تحررت من رعبي تحررت من ذلك القضاء والقدر ووعيت حريتي ..

كان ذلك يوماً — صحيح انه الآن ملقى خلفي لا قيمة له — وكنت ارسل الصوت استغيث ولا مغيث لا في الأرض ولا في السماء . وساقاي في الفلقة واثنان من الجلادين يشد انهما بقوة .. وعنف وكأنه بيننا الف ثأر — مع انهما كانا يأكلان افطاري صباحاً كانت ساقاي مرفوعتين في وجه الفقيه ، ويده تنهال بعصا من زيتون على قدميّ كان الألم في عروقي . وفي دماغي . في انسجة لحمي ، ونخاع عظمي ، كنت قطعة من ألم أصرخ ... !

وبعد ثلاث فلقات في ذلك اليوم عدت محمولاً في عربة إلى بيتي ، ومن حينها رفضت الذهاب إلى الكتاب مهما كان الثمن وعرفت طريقي إلى الرفض .. لا .

كنت اعجب والفقيه يتلو القرآن مع شلة من التجار كيف تخرج كلمات القرآن من نفس الحنجرة وبنفس اللسان الذي تخرج منه الكلمات البذيئة ؟ وكنت لسذاجتي اعتقد أن الله سيعاقبه .. ولكنه عاقبني انا ! !

اذهب إلى الكتّاب ، واحفظ القرآن . ولا افهم ما يعنيه . كان علي حفظه لكي لا أوضع في « الفلقة » فحفظته . وهذا كل ما في الأمر ، ولم أفهم منه شيئاً ! كنت اتصور ان الله فقيه يحمل سوطاً ، و (فلقة) وعندما تحررت من كابوس الفقيه ورميت في وجهه بحريتي مع (اللوح) اخذت ثلاث « فلقات » ولكن منذ مساء ذلك اليوم لم يعد له سلطان علي ؛ عندما تحررت منه تحررت من كل شي ..

كان يراد مني دائماً ان احفظ لا أن أفهم ، وانا رفضت ان احفظ ... ولا افهم .. ! فأنا شاذ !

انا في غربة

لا أنيس

لا رفيق

حياة كهذه شاقة ..

ولكنها ليست حياة الجماد ..

عندما تحررت من سيطرة الفقيه ، وتخلصت من صورة الله ممثلة فيه ، عندئذ تحررت من كل شيء ، ولم يكن في بيئتي بعد من يكرر امامي الف مرة في اليوم الواحد هذا حرام ! وهذا حلال فصرت لا أعرف إلا حلالي ، وحرامي ، ولا أفهم إلا خيري ، وشرّي .

بالطبع كانت لي طفولتي . حياتي الخاصة ، لم يتدخل فيها احد ، لم يصدر إلي احد أوامره ، طفولتي لم يدنسها الكبار بالنهي ، والأمر ، فهم يأمرون وينهون ولا يعرفون مما يأمرون به ولا ينهون عنه !

تبّاً لهؤلاء الكبار .. ! وخرجت إلى المجتمع ، مجتمع ؟ ! بالأصح حفنة افراد حفظوا اوامر ونواهي ، واعتادوا عادات يجهلون مصدرها — بل كلما كانت مجهولة كانت مقدسة — ويتمسكون بها كطوق النجاة وانا لا أفهم هذا كله لانه لم يكن جزءاً من طفولتي لقد فلتتُ من هذا ! .. نشأت حراً ، والآن يبغي استعبادي .. حراس المقابر !

مات صديقي . قتل في حادث . وكنت احدق فيه والجرح ما زالت الدماء تتسرب منه عبر الشاش الأبيض ، كان الجرح فوق أذنه بقليل ، كانت عيناه مغمضتين ، وشعره مبعثراً ، ومختلطاً بالدم ، وقميصه الأبيض صار أحمر .. وهمست بأسى :

— لم يعد بعد صديقي ، ليس إلا كومة من عظام ولحم ودم سيتجمد بعد قليل .. لم يعد بعد صديقي .. لقد انعدم صديقي .

خرجت من حجرة الإسعاف بالمستشفى لا الوي على شيء وتهت في الشوارع كان الفندق البلدي مزدحماً ، وسوق (بوغولة) تقطعه العربات محملة بالسلع والناس يتصايحون ويتصارخون ، وبعضهم يحمل اشياءه ، وفتيات يسرن بخطى مسرعة مجيلات البصر في قلق خفي ، وسوق (الجريد) أيضاً ، الأصوات ترتفع ، وبعض الناهدات يتقلبن تحت شواظ النظرات الجائعة المختلسة في غفلة من المجتمع ومن الحلال والحرام .

لم يتغير شيء ، الحياة تدب ، الناس يحيون ، اما صديقي فقد مات وماتت معه اشياؤه ، وأفكاره وذكرياته ...

ووجدتني ابتسم ، سخرية أو حزناً ، لست ادري ! ، ربما ابتسمت وتلك المهزلة تتضح أمامي ؛ كالقطيع السائر رغم تناقض عدوه فإن التناسل كفيل بالتعويض ، كانت ابواق سيارات تحمل عروساً ، تعلن عن أول اتصال جنسي : اشهدوا ياناس انها تضاجع رجلاً لأول مرة .

ولن ينسوا ان يحملوا بعد ذلك « القمجة » على مقدمة عربة ، سيارة ، والداهية ان لم تكن ملطخة بالدم ، حياة العروس مرهونة ببقع دم حمراء ، أما هو فلن يسأل عنه ، انه رجل .. !

هذه الليلة ، هذه العروس سوف تشارك في امداد القطيع بوقود لكي تستمر المسرحية .

وتساءلت : الها منتج ، الها مخرج : أنحن ممثلون في مسرح كبير ؟ ! وضقت بأفكاري ، وضج رأسي بصداع هائل ، فعرجت على السينما ، سأشاهد فلماً ، انسى به كل شيء يسحبني لفترة خارج هذه المأساة ، ولكنه كان يتبعني صديقي . كان معي اول امس في الدار نفسها . والآن لقد انتهى ! وانا الآن في هذه الدار متراخياً على كرسي ، وقد أكون غداً منتهياً ، واستولى علي رعب هائل .. انتهى ؟ !

وحدقت في نفسي ، من اطرافي ، وربما فغرت فاهي ذعراً ، وتساءلت :

أهذا كله سيكون لا قيمة له ؟ انا اتحرك الآن ، أسير ، اعدو ، أرى ، ايمكن ان يلغى كل هذا ! ؟ ! ..

وكان الجواب قاسياً ومريعاً : نعم !

لم يكن حينئذ في يدي غير يقين واحد ، ورقة واحدة ، لا أعرف أهي خاسرة أو رابحة ؛ إنني الآن حيٌ ، وهذا يكفي ، أما حين أنتهي .... ! ورفعت كتفي ، ولا شك ان الذي يجلس خلفي قد شاهد حركتي : إلى الجحيم ان كان ثمة جحيم لم يملأ ... !

ولكني أضيع عمري بالجلوس هنا راكداً كمستنقع ، مسترخياً كأنثى ، أحدق ببلاهة في شاشة بيضاء ؛ان خللاً في الجهاز يعدمها الحياة ، الا ما أقرب الشبه ! !

وضقت ذرعاً بالسينما ، كان يخيل لي في الظلام انه بجانبي « ينصص الزريعة » واني المح بريق الابتسامة في عينيه ، واشعر بيده تدفع مرفقي

ــ سعاد حسني الا تشبه المحبوبة ؟ !

ولكنه الآن قد انتهى ، اين تلك الابتسامة ، تلك الدعابات ؟ ! والتفت فلا اجده إلى جانبي ، وكانت سعاد حسني على الشاشة البيضاء تلهب خيال الجالس بجانبي . فأراه يبتلع لعابه عدة مرات متواصلة ، وعيناه مسمرتان على الشاشة تباً لهذه القذارة !

الا يعلمون ان صديقي قد مات ! ؟ ..
ولكن كلماته ما زالت ترن في اذني :
ــ سعاد حسني الا تشبه المحبوبة ؟ !

كنت اعرف فتاة تشبه سعاد حسني ، وكنت معجباً بها ، واستظرف دمها وإذا ما شاهد فلماً بطلته سعاد حسني حجز لنا معاً ، واخذ يبحث عني حتى يجدني ، وبابتسامته المعهودة ، وروحه المرحة يضع يده على كتفي قائلاً : هيا لنشاهد المحبوبة في شبيهتها !

وهنا كانت الابتسامة تطفو على وجهي . واحس بيده على كتفي ، ولكن يقشعر بدني ، وتذهب نشوة الذكرى في انتفاضة صاعقة :

– او ليس قد انتهى .. ؟ او ليس لسانه قد سقط في حفرة كان اسمها « فم » وسيأكل « الحشخوش الأسود » عينيه ، لقد انتهى وتحجر كل ماكان يربطك به من ذكرى قائمة هناك على بعد ، كان لك صديقاً ، ولكنه انتهى ، وغداً سوف يحشر في مستطيل متلفعاً بالأبيض ، وملفوفاً بإحكام ثم تنفجر احشاؤه ، وينتشر الدود آتياً على كل شيء ويوماً فيوماً لا تستطيع ان تكون عنه صورة ...

الا تعرفون ذلك ايها الجالسون في هذه الصالة محملقين في سيقان سعاد حسني ومتلهفين إلى صدرها وشفتيها : مصير هذه الأشياء جميعاً كمصير صديقي ، لكن ما يمسككم عن وعي ذلك اشباح قبور تنسل بينكم ؛ آمرة ناهية .. فمن الموتى ؟ !

وادير عيني فتقابلني الوجوه ، ممدودة ، والعيون محدقة تكاد تلتهم سعاد حسني ، والأفواه مفتوحة ، واللعاب يسيل ، ولا شيء غير ذلك ، وهمست لنفسي : انهم مستهلكون ، يسيرون إلى النهاية بعيون مغمضة ، لا تطلب منهم شيئاً لانهم منتهون أيضاً ... وانت كذلك !

ولكنه كان معي ، كان معي أول أمس فقط ، نفس الدار ، نفس الفلم ، وأمس خرج بسيارته إلى المرج .. ولم يعد ؟ ! والسبب تحطم جزء صغير في المقود فانحرفت السيارة لتعانق بقوة شجرة .. وانتهى صديقي : يا للبساطة .. يا للروعة ليس ثمة تعقيد ، ليس في الموت ألم ! أي موت ؟ ! ولكنه ليس موتي أنا فماذا يهمني من موت الآخرين ؟ !

والرؤوس تتقارب ، والشفاه تهمس ، وصديقي يحتضر : لقد كـــان مخموراً ... ! وينتقل الخبر ، وينتشر ، ويعلق أكثر من واحد انه يستحق موته ، وكنت ابتسم في نفسي : ومن لا يستحق موته ؟ !

مخمور .. ! أعرفه ، ليس هذا هو المهم ، وإنما لماذا أصبح سكيراً ؟ ! انهم لا يريدون هذا لأنهم قد يوضعون في قفص الاتهام بدلاً من مقاعد المتفرجين لقد تحطم ، وحطم ، وفقد كل شيء ، يريد اشياء لا ترضي غيره ولم تكن لديه القوة لاغضاب الغير ، ولا القوة للقضاء على حاجاته فلجأ إلى الخمر كمهرب يوفر له ساعات قلائل من راحة البال ..

ستتعدد التفاسير بتعدد الناس ، وسوف يؤلف ذوو الخيال الخصب حول هذه الحادثة حكايات طويلة ، ولمدة شهر ستظل الموضوع المسيطر على « جلسات الكارطة » واحاديث النساء حول «كوانين الشاي » وسيشتغل سكان الشارع جميعاً بالتحليل النفسي ..

وغاصت امامي الصور ، ولم اعد ادري ما أمامي ، كان يخيل لي ان صديقي هناك على الشاشة بقامته الطويلة . وجسمه النحيل ، وابتسامته التي لا تفارق شفتيه ابداً .. كلا .. وايضاً عينيه الضاحكتين ، وغمازتيه وكان محدودب الظهر قليلاً ، سريع الخطوة . كان يخيل لي انه هناك يخطو على الشاشة ، ويلوح لي بيده ، واوشكت ان ارفع يدي ، وقد هممت بالوقوف ثم شعرت بالعرق يغطيني ، وتلته موجة من البرد ، وأصابتني ارتعاشة ، وتوالت موجات العرق ، واحسست برأسي يدور ، ولم اعد احتمل .

خرجت إلى الشارع حيث لفحتني نسمة هواء رطب ، وعاد إلي الشعور بالواقع : صديقي انتهى وانا لم انته .

— خلف لك البركة :

— شكراً

كنت زاهداً في الحديث ، لا أطيق ان افتح شفتي

— ما سبب الحادث

ورديت باقتضاب ، وانا اتجول ببصري في الحديقة المقابلة للسينما ، وفي الإعلانات التي بدأت ترسل أضواءها .

— لم اكن معه .

ـــ ولكنه صديقك ؟ !

ـــ مات ولم يخبرني .

ونظر إلي نظرة غريبة ، وكأنه خيل اليه انني مصاب في عقلي . وهز رأسه وهو يستدير على عقبيه وانا اعرف معنى تلك الحركة المسرحية : حزين على صديقه !

وتركت يدي تسقط ، وشعرت بالراحة اذ عدت وحيداً ، فشرعت اخطو مبتعداً اخشى ان يفاجئني أحد ويرغمني على الكلام .

ـــ ما سبب الحادث ؟

كلا ليس حادثاً ، انه جريمة قتل ، القاتل خارج القفص لا تصل اليه يد العدالة ، العدالة ؟ ! .. ينبغي ان استغرق شهوراً لأنظف لساني من هذه الكلمات الجميلة المزخرفة ذات الوقع الموسيقي ، تلك الكلمات المؤلهة

انا في ضياع ..

السبب ؟ ! .. أمات معه ؟ ! كلا لقد أخبرني بكل شيء انه يحيا في مخيلتي ولكن لا أدري ما شعور والده الآن ، الذي حرص على أن يظل نظيفاً حتى العظم وأن يكون بغير ذنوب كالطفل الصغير ، ،لو كان هذا الذنب كذبة لطيفة بيضاء ليس ثمة داع حتى إلى اقترافها ، قلت والده ! ؟ ينبغي أن لا أتعجل . هل يلوم نفسه ؟ هل يشعر بالندم ، ولكن لا فائــــدة الآن ترجى من كل هذه الأشياء أنعترف دائماً بالخطأ بعد فوات الأوان ؟ !

واولئك الذين اوصدوا في وجهه باب الحياة بشدة معلنين صراحة أنه لا ينتمي اليهم ولا إلى عالمهم ، لقد القى المسكين في عالمه فجأة فأرعبه الأمر وكان فوق ما يحتمل ..

هل يلوم أي منهم نفسه ولو على سبيل المزاح ؟

كلا ! سيجد كل منهم من يحمل عنه الوزر ، سوف يصفق بيديه

ويرفعهما إلى السماء ، وسوف تبتل عيناه بالدموع ، ويخشوشن صوته « بالعبرة » ويتهالك ساجداً على ركبتيه ، وسوف يردد عدة مرات : لك ما أعطيت ولك ما أخذت ! حكمك يا رب ..

وبعد ذلك ينخرط في البكاء ، متقناً دوره لدرجة يحسده عليها الممثل المحترف حقاً كل شيء سهل عند هؤلاء . يتنصلون بسهولة فائقة من مثل هذه الأمور ، لقد رددت على مسامعه كلمات تبعث فيه الثقة بأنه بريء : قضاء وقدراً ! يا من انزلت القضاء ، الهمنا الصبر ..

ويتأكد ايمانه بأنه بريء ، وان المخطأ هو القضاء والقدر ، ذلك الوحش المرعب الذي لا نتذكره إلا عند المصائب والشدائد ، لكم انت كريم ايها القضاء والقدر لكم تحمل من اوزار الضعفاء ، ومن ضربت عليهم الذلـــة والمسكنة ، الم تنهد بعد تحت ثقل هذه الاوزار ؟

القضاء والقدر هو وقوع ما نكره ، القضاء والقدر احداث لا نعرف اسبابها او نتجاهل معرفتها لأنها تتصل بنا ، وتجعلنا مذنبين .

نوع من الفرح الديني ، نوع من الأوضاع الخاصة ، ان الذي يدهمه المصاب يشعر لبرهة من الزمن انه مركز العالم ، فكل المشاعر تتجه اليه ، وكل الايدي تمتد لتقيمه من عثرته ، ان الحزن العميق يبدأ بعد هذه الفترة ! بعد ان ينفض جمع الناس ويعود الإنسان إلى نفسه .. !

كنت أشاهد هذا المنظر ، وكنت اقف فوق فوهة القبر المفتوحة ، وكان الجثمان الملفوف جيداً في قماش ابيض يوضع بحرص – وكانهم يخشون ان تصيبه كدمات – في فتحة القبر ، ثم رصت الحجارة فوقه ، واهيل عليه التراب ، وعندئذ انهار الأب راكعاً وصارخاً : حكمك يا رب .. حكمك يا رب !!

وأوشكت ان اضحك ، إنهم يجعلون من الله منفذاً للأمور السيئة ، كنت ارغب في الضحك بصوت عالٍ والناس يهرعون اليه ، ويسندونه وتتسابق

اليه الأيدي ، وكان ينقاد في دعة طفولية منتشياً بتلك الحماية الزائدة. كنت اشعر ان ثمة لذة في ذلك، وكانت الكلمات تتناثر ، والقبر يرثى بالماء وصوت مقرىء محترف يتسلل بين الجموع « ياسين والقرآن الحكيم ... » ويسترسل في التلاوة وانا مصغى اليه « يا ليت قومي يعلمون .... » ورددت ذلك عدة مرات وكن القوم كانوا في شغل شاغل عنه : لا تكفر بالله .. خلي ايمانك قوياً بالله .. !

وكان نوع من الشماتة ينبعث في اعماقي : يستحق هذا ، بل اكثر من هذا كانت المشكلة بسيطة بل ليس ثمة مشكلة ، كان كل شيء في يده ، ثم انفلت منه الزمام حين أصر على قول الحقيقة ، والآن المشكلة لاحل لها ، مات احد طرفيها ، بل الطرف الرئيسي ، والطرف الآخر .... ! والقضاة الجائرون صار أحدهم يتمرمغ في تراب الضحية ، والآخر منزو كثعلب عجوز يضم اطراف جرده ربما يشعر بالإثم لانه ليس حزيناً بما فيه الكفاية ، ولكن لن يعترف اي منهما بأنه اعدم شخصاً ظلماً ، بل يلجآن إلى القضاء والقــدر ، وهذا يعقد الأمور اذ معنى هــذا ان كل هؤلاء الملتفين في (جرودهم) ينبغي وضعهم في قفص الاتهام، لقد صوتوا بطريقه ما لاعدام شخص ظلماً ..

عرفتها من خلال حديثه ، فتاة طيفة حلوة المعشر ، وتحبه ، وتهيأت لي الفرصة ان أرافقهما في عدة نزهات خارج المدينة ، كانا حملين طائعين . يمارسان احياناً بعض الخروج عن قواعد المرعى ، وكانا يقدسان تقاليــد الرعاة وكان صديقي انذاك في قمة السعادة ، حتى بتُّ اوشك ان اتيقن بان بلوغ السعادة القصوى امر ممكن ولا يحتاج إلا ان تُحب وتُحب ، وكان قلبه انذاك ينبض .... والآن ؟ !

لقد ماتت معه .. موته دمر حياتها ..

ستعيش بقية العمر في غربة ..

جاءني يوماً بعد غيبة فكدت لا اعرفه ، وكان متغيراً تماماً ، يضحك بشكل يجعل الفرائص ترتعد رعباً ، ثم سرعان ما تموت الضحكة ، ويحل محلها حزن يكسو وجهه بتجعيدات مريعة ، وكان امره يدهش ، فليس هناك حد فأصل بين ضحكاته ، وتكشيراته ، ولم اكن اعهد منه ذلك ، وعندما فتحت باب السيارة ، ودلفت إلى جانبه عرفت السبب ، كان مخموراً ، وهناك تحت الاقدام زجاجة « وايت هورس » فارغة ، وكانت ملابسه مبهدلة ، وعجبت لذلك كل العجب ، واخذ يتحدث وهو يقود بسرعة جنونية دون ان يصمت لحظة واحدة وخاض في كل شيء السياسة الرياضة ، النكت البذيئة ، وعندما وصلنا الى «عقبة الرجمة» اوقف السيارة على جانب الطريق ، واستند إلى المقود ، وصمت لحظات ثم رفع رأسه وتوجه إلي قائلاً دون مقدمات .

– تعرفها .. ! ؟

وبسرعة تبنيت قصده واشرت برأسي : نعم

واستطرد : فتاة يتيمة الأب . رقيقة الحال ، والدها القى بها في العالم ثم غادره وتركها وحدها تصارع مع الزمن أماً عجوزاً ، وكانت تعمل مدرّسة لتوفر لنفسها ولأمها الحياة ..

وكانت هذه المعلومات بالنسبة لي جديدة كل الجدة ، وبينما كان يتكلم استند إلى كرسيه ، وسرح ببصره في الأفق البعيد ..

– وكانت تدرس إلى جانب عملها ، التقينا في امتحان التوجيهية منذ عامين ، وتبين لي انها جارة لنا ، وان ذلك المنزل الطيني هو مسكنها كانت تصارع المصاعب في كل لحظة ، وكل يوم ، ثم وجدت الواحة التي تتفيأ ظلها فأرسل القضاء والقدر من يدمّر الواحة لكي تبتلعها الصحراء بين رمالها ، ورمضائها . يائسة تعسة غريبة .

وصمت حيناً ، ثم اسند رأسه إلى المقود قائلاً

ـ حياتي تنهار يا صديقي !

وكنت لمس هذا فعلاً ، كل كلمة قالها كانت تعبر عن انجرافه نحـــو الانهيار ، غير إني وددت ان اقدم له بعض التعزية قلت :

ـ دعك من هذا الكلام .. نحن نصنع حياتنا

وحملق في قليلاً ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة ثم قال :

ـ كلا لا نملك القوة .. ان الكبار يستغلون كل شيء لكي نخضع لهم

قلت ـ تمرد عليهم :

ورفع إلي عينيه ثم خفضهما واردف :

ـ ارجوك لا تتفلسف :

وصمت ، لم اجد بعدما أقوله ، لقد قرر انه ليس ثمة امل ، وليس بأمكاني ان اثنيه عن هذا القرار ، ثم قطع الصمت قائلاً :

ـ انت لم تعش ظروفي ، اذن لن تفهم !

ـ ظروفك ! ما السيء فيها ! هل السيارة الفاخرة ظروف سيئة او الملابس التي تتغير صباح كل يوم ، أو النقود التي لاحصر لها بين يديك اذا كانت هذه ظروفاً سيئة ، فأنا اذن في نعيم ! ؟

ـ صدقني انها الظروف السيئة ان اولد في اسرة ثرية تقدس اسمهـــا وثروتها ..

ـ كنت اعتقد ان العكس هو الصحيح !

ـ قد يكون

ـ لا قاعدة اذن في الأمر

ـ كلا .. بالنسبة لي العكس صحيح

ـ كيف .. ؟

ـ كيف ! ... صعق والدي حين فاتحته في الموضوع .. الزواج .. كانت تثق في ، ولا يمكن ان استمر في خداعها ، اردت انهاء الموضوع

لكي استطيع ان اخرج معها امام الملأ ، لكي أعمي العيون المتلصلصة. وسألني عن اسمها واسم عائلتها ، وذكرت له انها يتيمة الأب تعول أماً عاجزة ، ... لن تتصور كيف كان يسخر مني آنذاك .. وكم ضحك حتى كاد يستلقي على قفاه ..

واخذ يقلد صوت والده « شاطر تبيني نخطبها من حطام عجوز في ركن دار .. أنا انا اتخذ هؤلاء اصهاراً ؟ ! مستحيل .. »

وضحكت أيضاً لاتقانه التمثيل ، وصمت ووجهه مكفر ، ورأيت ان أقول :

– مهما تصور لي الآمر ليبدو اكبر من حقيقته فإنه لن يكون على درجة من السوء عظيمة .. أخطبها بنفسك ، وليذهب الوالد إلى الجحيم انت ست طفلاً ، تستطيع ان تعمل وتعول نفسك .

وانطلق يضحك بهستيريا ، وضرب بيديه مقود السيارة ، ثم اتجه إلى بأسى : ولكنك لم تسمع بقية الموضوع .

وتساءلت بدهشة : الاتزال هناك بقية

: نعم .. الم اقل لك انهم يستغلون كل شيء ليخضعونا ..

– اذن هات ما عندك

– لكي يقطع علي خط الرجعة اتصل بشيخ الشارع واعطاه ثلاثين جنيهاً ليعطيها لأمها ، ولينذرها بشكل حاسم باستحالة ارتباط ابنتها بي ..

كم كان الأمر عملية مدمرة ، تهدم من الجذور ، اعرف ما شعرت به حينئذ ، عندما زحفت امها العمياء لتسلمها النقود ، ولتقص عليها بكلمات دامية ما دار في زيارة الشيخ لهم ، كان الأمر مهيناً ، وقذراً إلى درجة كافية لكره العالم اشعر بهذا كله ، وكأني انا في مكانها ..

ولم أعرف بالموضوع إلا عندما طرق باب بيتنا ، وخرجت لأفتح ،

كنت أرتدي كامل ملابسي ، وكان رباط العنق مفتوحاً ، والزر الأعلى للقميص أيضاً مفتوحاً وكانت السترة في يدي اهم بارتدائها عندما طرق الباب ، وكانت تفاحة في يدي اقضم منها ، كنت استعد للمجيء إلى محاضرة مسائية عامة ، وفتحت الباب بتكاسل ، ثم وقفت جامداً ، وفمي مملوء بقضمة من التفاحة التي في يدي . وكانت هي أمامي . نظرت إلي نظرة غريبة ، خيل لي أنها مملوءة حقداً ، وفتحت مظروفاً كان في يدها ، واخرجت منه ثلاث ورقات من ذات العشر جنيهات ثم القتها في وجهي ، وبصوت باك ، والعبرة تأخذ بخناقها تمتحت :

– ربما تحتاج بنزين للسيارة !

وانحلت عقدة لساني ، وهضمت قضمة التفاح بسرعة ، بينما كانت تستدير متعثرة بخطاها ، وبتعاستها ، وتركت الأوراق المالية مبعثرة في « السقيفة » وجريت خلفها مندهشاً تماماً لكوني أجهل كل شيء ، فلم يحدث لها ان قصدت بيتنا ابداً ، ثم الأوراق المالية ما قصتها وكيف وصلت اليها .. ومن ... ؟ صحيح كنت اشعر ان في الأمر لعبة قذرة ، واستمرت في سيرها ، ولا شك انها كانت تبكي ولحقت بها ، وامسكت بذراعها ، وجذبتها نحوي متسائلاً ، غير شاعر بالناس ، وبالرقاب التي تطل من وراء الابواب ، والعيون المحملقة خلف شيش النوافذ التي تسجل ما تجتره بعد ذلك « في مواعيد الشاي » .

– ما القصة .. خبريني ! ؟

– انا فقيرة ..

وغصت بدموعها ثم اردفت

– ألم تعرف هذا من الأول ، الم تلاحظ الفرق بين بيتنا الطيني وبيتكم؟ فلم اشقيتني ؟ لم تركتني احبك ، بل شجعتني على ان احبك ثم ... ثم ..

ومنعتها الدموع من ان تواصل فترة ثم واصلت .

- انا فقيرة بائسة لا إسم ولامال ، القاني أب في العالم وفر منه .. ألم تكن تعرف هذا من الأول ؟ .. ولكنكم لا تعرفون إلا انفسكم ، تعتقدون انكم بهذه الأموال القذرة تشترون كل شيء حتى كرامة الفقراء ...

وجذبت ذراعها من يدي بقوة ، وكانت تبكي بغزارة ، وتنتفض ، فتركت ذراعها ووقفت في مكاني ذاهلاً .. وراقبتها وهي تدلف إلى البيت الطيني ونسيت المحاضرة ، ونسيت كل شيء ، كيف سأقابلها ؟ كانت آمالي تنهار في بئر لا قاع له ، والتقيت بها صدفة في شارع عمر المختار ، فأشاحت بوجهها ولكنها كانت ذابلة تماماً ومحطمة ، وكان قلبي ينزف في صدري ، اذ اشعر بأني ضحية لشيء لا أفهمه ، انها لا تراني انا بعد .. بل ترى الاوراق المالية ، ترى الاهانة الماحقة ، انها تكرهني ، وانا أحبها ، ولكنها بسببي قد دُمّرت ...

وصمت قليلاً . وأبديت شعوري بالأسف ، فحدق في برهة ثم انفجر ضاحكاً بقوة ، واستمر مدة دقائق في ضحكة متصلة ، ثم صمت ونظر إلي ، وبسخرية قال : صدقت ؟ !

- اليس هذا ما حدث ؟ !
- انه منطقي جداً بحيث لا يكون واقعاً ، مقدمات تفضي إلى نتيجة بالضرورة ولكن هناك نتائج لا مقدمات لها ، كل ما تستطيعه ازاءها ان تقول : حدث ما حدث ولست ادري كيف !

ولم اعلق ، فأردف : أنا .. أب يمنعني من الزواج بسبب مركزه ، فتاة فقيرة احبها ، انا .. لا أملك مثل هذا الترف ، ان يفكر في انسان ولكنها قصة محبوكة جداً ، وقد شذبت اطرافها لتبدو متناسقة مطردة ، ولكن صدقني الآن تبينت ان مثل هذه القصص لا وجود لها ، انها من صنع خيال كاتب

يفرض على الأشخاص وعلى حركاتهم نظاماً قاسياً صارماً .

فتأتي لم تكن فقيرة ، كانت في مستوى اسرتي — أوفٍ ينبغي ان انظف لساني جيداً — وابدت استعدادها ان تتزوجني على الرغم من الجميع ، ووافق والدي — سأسميه كذلك حتى تلك اللحظة — ولكني انا رفضت ! هل تسمع ؟ أنا رفضت !

تصور شخصاً يعيش خمساً وعشرين سنة بين أشياء ، وناس ، هذا منزلك هذا ابوك ، هذه أمك ، هؤلاء أخوتك ، هذا فلان ، وذاك فلان ، وانت فلان ابن فلان وابن فلانة ..

خمساً وعشرين سنة تعيش وسط أشياء تعرفها جيداً ، ومتيقن من ذلك كرسي ، منضدة ، سيارة ، شارع أحمد رفيق ، توريللي ، إذا سرت من شارع الاستقلال فسوف يؤدي بك إلى شارع البركة، اشياء ثابتة ذات معنى ثابت ، وفجأة فقدت هذه الأشياء معانيها ، كل ماكنت اعرفه عنها صار زيفاً ، كنت اعيش في عالم من « كرتون » تحطم فإذا أنا في صحراء — لا شيء على الأطلاق .

كيف أحدد وضعي ، ذاتي ، اسمي ، وجودي ؟ اصبحت في متاهة لأنى ... لأني لقيط ، ابن زنا ، ابن غير شرعي ، وبهذه البساطة فقدت كل شيء اسمي ، مركزي ، وضعي ، وانكرتني الأشياء ، وانكرني الناس ، ولم أعد ادري كيف اتصرف ..

اصبحت ادرك ان من كنت ادعوه أبي زائف ، بل شخص غريب عطف علي يوم أن وجدني ملفوفاً في قطعة قماش بجانب جدار ، ليته تركني أموت أوحتى أعيش كقطط الشوارع ، اذن لاصبح لي شيء حقيقي حتى على الأقل عالمي غير الشرعي ، على الأقل وجدت رفاقاً من طينتي ، وامتلكت اشياء تخصني ، أن اعرف جيداً جدار بيت متهدم استظل بظله، وان تكون لي ذكريات حقيقية تربطني بالأمكنة التي ارتادها ، اما الآن فلا

ذكريات لي . ماذا أقول اذ أصبح كل ما كان حقيقياً زائفاً .. لا ثقة لي في أي شيء ..

تلك التي كانت أمي أصبحت أشعر نحوها بنوع من الاشتهاء ، وحالما عرفت تغيرت كل مظاهر حياتي في ذلك البيت ، أصبحت اشعر بأنها ترتاب في فحرمت ان أدخل (الحوش الجواني) وأصبح من كان يدعى بأبي يبذل قصارى جهده في أسعادي ، وكلما غالى في ذلك شعرت بغربتي ..

يمنعني من الزواج؟! ذلك ترف غير متوافر لي ، انه يعني انني ابن حقيقي ولكني لست ابناً حقيقياً ، أنا ابن لحظة لذة آثمة احمل وزرها طول حياتي بدون ان يكون لي يد فيها ..

اهذه مشكلة بسيطة ؟ انها مشكلة لا حل لها . لان وجودي أصـــلاً لا شرعي ، إذا كان ثمة حل فعد بي إلى ما قبل مولدي واجعل أماً وأبـــاً حقيقيين بوثيقة رسمية ينجبانني ، ولكن هذا مستحيل !

نعم لو كانت المشكلة مجرد الزواج لكان الحل بسيطاً ، لقد عرضت علي ان نتزوج رغماً عن أهلها ، ووعد ابي الزائف بالمساعدة التامة لوضع اهلها أمام الواقع ولكني رفضت ، وسأرفض حتى لو قبل اهلها .. !

ماذا سأهبها ؟ انسان بلا اسم ، بلا ماضٍ ، بلا ماض ، ولا مستقبل انسان وجوده لا شرعي ، شجرة مجتثة من عروقها ، ماذا اهبهـــا؟ ... تعاستي ! وانا افكر في الأم التي حملت بي في غفلة من المجتمع ، والأب الذي اعتلى أمي لينفخ بطنها ويفر ، وربما كانت أمي عاهراً ولدي الآن أخوة في الشارع ولكنهم على الأقل يملكون حقيقة لاشرعيتهم منذ البدء .. وهذا امتيازهم .. كان أبي الزائف يريد ان يكون نظيفاً مع الله وعباده عندما تقدم ليخطبها لي ، ونالت الخطبة الموافقة التامة ، ثم همس أبي الزائف ان ثمة شيئاً بسيطاً ينبغي توضيحه . وصارح الجميع الذين كانت تعلو ضحكاتهم في « مربوعة » أهلها ، وكنت منتشياً في قمة سعادتي ، اخطط كيف سأتنزه معها ؟

ونذهب إلى بحر طلميتة لنسبح معاً ، واخذت اتجول بسيارتي ، وعندما عدت مساء، كان الأمر قد انقلب ورفضت الخطبة ، ووجدت والدي متجهماً شديد الحنو علي، وأمي، الزائفة تبكي، وعلمت بالرفض دون ان اعرف السبب !

وصممت ان اعرف ، كيف ولماذا ارفض ؟ ! انا في مستواهم وأعلى ، ادفع لهم ما يوازي وزنها ذهباً ، وكنت انذاك مثار سخرية ، كنت مخدوعاً اتحدث وكأني الابن الحقيقي .

وابتسم ابوها في وجهي ، ثم قال ببرود .. أنت لا تملك شيئاً ، ان أملك الله وحده يعلم اين تكون الآن وكذلك ابواك ... انت ابن زنا ؟ .. لقيط ..! وذعرت ، وارتعدت فرائصي ، ولم اصدق ، اندفعت في ثورة وهيجان إلى متجر والدي ، فلم ينبس ببنت شفة ، صمت والدموع تنحدر من عينيه .. اراد أن يكون نظيفاً فقضى على ، صارحهم بأني لست ابنه من الصلب ، وأنه وجدني في جدار بيت متهدم مجهول الأبوين ، وانه استخرج تصريحاً بأن يتبناني وعندئذ رفض ابوها ان يزوجها لانسان وجوده لا شرعي ! ! ..

خبرني الآن لماذا تصمت ؟

اهذه مشكلة بسيطة ، ابالامكان حلها ؟

اليس نقمة ان يتبناني ؟

لوكنت عشت في الشوارع اتوسد الأرصفة ، وأتسول ، وأجمع أعقاب السجاير اليس ذلك أفضل ؟

على الأقل سيكون لي انذاك عالمي الحقيقي ولو كان غير شرعي ، كانت تلك الحقيقية تكبر معي ، وتشب في نفسي فلا افاجأ ، أما الآن فلقد اخذت على حين غرة .. وكأنني القيت في منطقة ما بعد الجاذبية !

لقد شكرت لها شعورها الطيب حين أكدت لي انها تحبني رغم كل شيء ، ولكن المشكلة انني كرهت لفسي ، وما أدراني أن حبها ليس زائفاً ؟ لقد فقدت الثقة في كل شيء ، وفقدت أي معنى لحياتي اللاشرعية ..

صديقي ..

اولئك الذين قسموا الناس إلى مشرعيين ولا شرعيين حكموا علي مسبقاً وقبل ان اولــد بالاعدام ، وهربت من ذلك الحكم خمساً وعشرين سنة ثم حوصرت وقبض علي وهاهم ينفذون الحكم ! ؟

اتستطيع ان تتصور الحياة وسط اشياء فقدت معاينها ، بل تبين لك انها زائفة اصلاً ! ؟ كيف اقول ابي بعد ان عرفت انه ليس أبي ؟ وكيف اقول أمي ؟ ! ان هذه الكلمات أصبحت أجد حرجاً في نطقها ، والصغار الذين كانوا اخوتي ، والذين ينظرون إلي بتقدير واحترام ، لو كانوا يعلمون أنهم يملكون علي امتيازاً كبيراً انهم شرعيون وأنا غير شرعي !

خبرني ماذا افعل بحياة كهذه ؟ ماذا سأهب أولادي ؟ لعنة أبدية اسماً مزوراً ؟ .. لا ستموت اللعنة معي !

وصمت ، واسند رأسه إلى مقود السيارة ، ثم رفع رأسه ، وبدون ان ينظر إلي ادار « الموتور » وهبطنا « عقبة الرجمة » صامتين .

فعلاً كان الأمر مرعباً ، وقاسياً ان تستيقظ فتجد العالم الذي كنت تعيش فيه مزيفاً برمته ..

ان تجد ما امنت به يتهاوى

وما اعتقدته يثير السخرية

وحينذاك لم أجد ما أقوله ، التعزية في هذه الحالة مهزلة ، وكان يعي بعمق أكبر .. مشكلته وجوده اللا شرعي .

* * *

(٢)

كان ذلك منذ بضعة أشهر خلت ، ولاحظت بعدها انه أخذ يعاقر الخمر والنوادي الليلية ، وأصبح كئيباً ، يسير كشيخ هرم ، وفضلاً عن ذلك فقد كره كل شيء ، أصبح يلقي بنظرات زائغة قلقة ، ويعاني هروباً مستمراً من وجوده الزائف ، كان يحيا بدون أمل !

يوم ان غادر بنغازي إلى المرج لتفقد بعض اراضي والده بالتبني الزراعية كان ثملاً للغاية ، وكان يحمل زجاجات الوسكي ، وسألني ان اذهب معه ، ولكن كان لدي ذلك اليوم امتحان مهم فاعتذرت ، وكـــان يبتسم بمرارة قلت له :

– لم تصنع بنفسك كل هذا ؟ تقبل الأمر ببساطة !

فأجابني – انت لا تعرف لانك لست في وضعي ، صحيح انك يتيم ، ولكن على الاقل ترك لك أبوك كنزاً ؛ اسماً ووثيقة تثبت انك شرعي. وداس على البنزين، واستعد للسير وهو يلقي إلي بآخر كلماته .

– « الحياة أمل إذا فقدناه فقدنا كل شيء ... وأنا فاقد الأمل ! »

وانطلق ، والعجلات ترسل صراخاً حاداً من احتكاكها بالاسفلت ، ولم يعد !

حسناً ! ابك ايها الأب المزيف الآن ، الق الوزر على القضاء والقدر ، ولكن اطلاقاً لا فائدة ، مرغ نفسك بالتراب ، مرغ اسمك في الوحل ،

لا فرق الآن بين شرعي ولا شرعي . ويوماً ستوضع في حفرة كهذه ، وتكون عندئذ قد انتهيت ، انت واسمك وثروتك ، وسمعتك النظيفة جداً ! ما الضرر لو انك دفنت السر وتركته يعتقد بشرعيته ، ما الضرر لو صمتّ فتزوج وعاش بدل ان تلغي بكلمة كل معالم حياته . لو صمت لكان الجميع متيقنين انه ابنك البكر ، ولكن اردت ان تكون نظيفاً ونظيفاً جداً مع الله وخلقه ، ولم تكن تسمح ولو بنقطة سوداء بريئة تحتل جزءاً من بياض سيرتك ، فماذا كانت النتيجة .. مرغها الآن بالتراب واندم حيث لا يفيد الندم ..

كانت الافكار تلعب في رأسي، لقد دفنته صباح اليوم ثم خرجت اهيم على وجهي ، والآن انا في حاجة إلى قليل من الخمر لكي اقوى على مواجهة الأمر ..

أنا أيضاً معرض بشكل ما إلى وعي وجودي الزائف ..

سأسكر .. ثم أفيق وقد أمحى كل شيء ، وأصبح كل شيء مجرد ذكرى

ـ حسناً يا مدام في صحتك .. نخب صديقي الميت الا تعرفين انهم بطريقة ما قتلوا صديقي ، والآن هم طلقاء يتبادلون ربما التهنئة ، وأيضاً صديقته ، تسأليني من هم ؟ ! الا تعرفين ؟ ! انهم الكبار ، الكبار دائماً ، ومن غير الكبار ؟ !

لقد قتلوا صديقي وربما سيقتلونني أيضاً ..

ولكن يا مدام في صحتك ذلك أمر لا يعنيك طالما اني لا أحمل موتك كما ان صديقي لم يحمل موتي .

خذي ! إملئي الكأس ثانية ، اترعيه قبل ان أموت ، ربما الآن أو بعد قليل ، اسقيني قبل ان أموت ويجف خلقي ، قبل ان يقتلني الكبار ربما من الضحك ، انا اسخر منهم .. ربما اشمئزازاً ، قد يسببون لي القرف والغثيان فأقذف بامعائي خارجاً .. فأموت ..

الف وسيلة للموت !

مدام اشربي ، حياتك كحياة كثير منهم ، أنت تبيعين اللذة وغيرك يبيع حريته ...

دعينا نرقص الفالس ، التويست ، انا لاأعرف ، ولكن علميني ، أريد ان أفعل كل شيء قبل ان أموت ..

يوماً سأشتري واحدة مثلك ، وسأخذ وثيقة يبصمها شيخ هرم لكي يكون أولادي شرعيين ، سأحتاط جيداً ..

والآن ، ماذا يهمك من هذا التخريف ؟ ! الآن قبيلني ! كلا ! ولكن صديقي ميت الا تعرفين ، قتله هؤلاء الصلع ، وهؤلاء الذين أكتسى شعرهم شيباً قتله حراس الفضيلة ، ورجال المجتمع الأفاضل الذين يخلعون الفضيلة كما يخلعون معاطفهم الشتوية ويعلقونها في المدخل ،حتى إذا خرجوا ارتدوها وفي اهابها كل انواع الفضائل ..

ولكني لا أفهم يا مدام !
لأني غريب عنهم ،
ربما وضعي زائف بشكل أو بآخر !

شارعنا كان مضاء بالأنوار ، والكراسي على الصفين ، وهناك شيخ بعد ان تناول عشاء دسماً انطلق يرتل القرآن ، وكانت الرؤوس منكسة تنصت في خشوع إلى القرآن يتلى ، شيئان يتذكرهما الناس اشد وضوحاً الله في الجنازة ، والفراش في الافراح ، وما بين هذين فنسيان وسير اعمى ! ..

كانت الساعة حوالى الواحدة بعد منتصف الليل عندما دخلت الشارع وأيقضت خطواتي الجالسين من اغفاءتهم الذي اعتقدته خشوعاً وارتفعت الرؤوس ، وانطلقت النظرات من المحاجر تحاصرني ، ولكن لم اهتم ، كان الأب المزيف جالساً يتصدر « السهرية » وعندما مررت به غمغم بصوت حرص ان اسمعه : « لعن الله أولاد الحرام االلي علموه البطال » وكنت اعرف قصده ، وكدت اصرخ في وجهه « ايها الكاذب .. ايها المنافق ايها

الجبان القذر انت السبب !!

ولكن احتراماً لذكرى صديقي ، وبعض المثاليات المترسبة في عماقي جعلتني ابتسم ، وأصمت .

وتحت شواظ النظرات جلست على أحد المقاعد ، وظلت الانظار متجهة نحوي ترسم دائرة من الكراهية ، وكنت اسمع في فترات الصمت التي تتخلل التلاوة بعض التعليقات يحرض اصحابها ان اسمعها ، وكأنهم يردون لي ديناً عليهم . .

(« صداقة آخر وقت كان صايع أندر وين بعدين تفكر سهرية صاحبة » « لعنة الله على اعيال اليوم) .

وكظمت غيظي ، انهم يستفزونني لكي يقضوا علي ، ولكن لن استفز ولم يرد أحد تحيتي ، اذ رفعت يدي حين مجيئي وتركتها تسقط الى جانبي ..

وكنت بينهم غريباً وشاذاً أمثل عالماً لن يفهموه

غربة ..

غربة ..

غربة ..

يفرون منها باختراع امور تستعبدهم ، ويقضون النهار جرياً وراءها والليل يأوون إلى آلات اللذة القابعات في انتظارهم . أو إلى النوم العميق هروب .. !

ونهضت مغادراً ، وادرت المفتاح في الباب ، ودخلت وآخر التعليقات يمنع بيني وبينها الباب الذي صفقته خلفي ..

« ماشي بيرقد تعبان — وصاحبه راقد في القبر »

صفقت الباب بقوة : كلا ليس صاحبي الذي في القبر ، في القبر عظام وكومة من اللحم والدم المتجمد .. اما صاحبي فلقد إنتهى !

غربة ..

ضياع مطلق ..

متى شعرت بهذا لأول مرة ؟ اذكر ان هذا الشعور الذي يغلفني الآن قد شعرت به من قبل ، اين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ شعرت بأني لا أنتمي لأحد . وان كل ما حولي غريب عني ، لا أفهم متى شعرت بأني في العالم وحيد رغم آلاف الذين كانت تتقاذفهم الشوارع .. لا أذكر . ولكن بالتأكيد قد حدث ذلك يوماً .. !

– خلف لك البركة

– من أنتِ ؟

– أنا !

وغصت بالدموع ، ففهمت بشكل مباشر انها الوسيلة التي انكشف بها زيف العالم أمام صديقي

كانت تتعمد ان تلتقي بي ، وقد دهشت لذلك خاصة حينما استوقفتني فأنا لست مغرياً للفتيات لكي يتعلقن بي ، ولكنها وقفت أمامي بشكل أدركت معه انها تقصدني

– ولكنك انت في حاجة إلى التعزية

ولم ترد مباشرة بل صمتت قليلاً ثم قالت :

– انه صديقك ، كنت اراك دائماً معه ، وأيضاً عندما ذهبنا مرة معاً للنزهة .. اتذكر ..

وتدحرجت دموع من عينيها ..

– نعم .. نعم انني اذكر كل شيء ... وانت

– انا ... ؟ !

صمتت ، وتهالكت على مقعد في الحديقة العامة ، واخرجت من حقيبة يدها منديلاً مسحت به دموعها المنهمرة ثم رفعت الي وجهها. كانت شبحاً

بمعنى الكلمة ، الحياة تمثل فيها مسرحية متكلفة ، وطافت بذهني كلمات صديقي « الحياة أمل إذا فقدناه فقدنا كل شيء » لقد انقطع الشريان الذي يمدها بالحياة حين تحطم الأمل في طريق المرج ..

وأخيراً تكلمت .

– كيف كان الحادث ؟

– اصطدم بشجرة ، كان مخموراً ويقود بسرعة .

– ولكن حين عرفته لم يكن يتذوق الخمر أبداً .

– تغير ..

– ....

– كل شيء يتغير !

– الم يتكلم بعد الحادث.

– شاهدته يلفظ انفاسه الأخيرة ، والكلمة الوحيدة ...

ولكن هل أخبرها ؟ .. أأقول لها ؟ الا يزيد ذلك في احزانها واشجانها وتعلقت عيناها بشفتي في لهفة ، انها تعرف مسبقاً ولكن تريد ان تتأكد . تريد من يعيد ذلك عليها .. عزاء ...

ورأيت التوسل بادياً في عينيها فصممت ان اخبرها :

– كان اسمك آخر ما نطق ، بل الكلمة الوحيدة .. اسمك .

وكانت تنتظر ذلك ، تجمع احزانها لكي تنفجر ، فلقد انهمرت الدموع ثانية من عينيها ، واخفت رأسها بين يديها ..

قلت . دعي البكاء .. لن يفيد شيئاً .. لقد انتهى الآن !

– لكن .. ! ربما مات حاقداً علي ! ؟

– كلا ..

– أو تعرف ؟ !

– نعم

– ولكني اشعر انني ظلمته ، لقد أخطأ أبي ، ما كان ينبغي ان يكون ذلك الأمر التافه عقبة ، لقد حطمه أبي بسببي ، لقد ظلمته ..

– لقد ظلمتما معاً

– غير ان الامر كان قاسياً ومريعاً ، لم استطع احتماله ،عرضت عليه ان نتمرد ، ولكن كانوا قد حطموا فيه كل رغبة في الحياة .. سلبوه كل شيء

– انا اقدر شعورك .. كما قدره هو أيضاً

– صحيح .. ؟ !

وفتحت حقيبة يدها ، وأخرجت حافظة صغيرة ، وقربتها من عينيها ، فتحايلت بخفة ان ارى ما تنظر اليه في الحافظة الصغيرة ، وكان يقبع هناك في اطار صغير مذهب ، يبتسم وجهه كله ، مرتدياً بذلة رمادية . ولكن الصورة كانت جامدة وباردة ، ومطبوعاً عليها انسان قد انتهى

لقد كان انساناً ..

ما الذي يذكرني بكل هذا الآن، بعد مضي أكثر من سبعة أشهر عليه ، ما هذا الشعور الذي يخالجني فيقشعر له بدني ؟

كان خيالي يطوف بذكرى الأيام الماضية، ولم افقه من المحاضرة المسائية شيئاً !

ماذا كان يقول الأستاذ ؟ اقسم اني لم أفقه شيئاً !

كان يرتسم أمامي نبات ، بل بذرة ثم نبات ينمو ويترعرع ثم يلقي بذوره وقد لا يلقي ، ويزول وينتهي ، هذا هو الانسان، غير ان هناك أموراً طارئة قد تعصف بالنبات .فقد تعصف به ريح عاتية، او تعبث به يد عابث او تنهش ساقه دودة جائعة أو يفتقد الماء ..

الف وسيلة للموت .. للقتل ..

ولقد عصف بصديقي أمر طارىء ، ولما يكتمل نموه بعد .

كانت تطوف برأسي فكرة : ان أُحب ، ولكن كلا ان الحب مهلك أكثر من الكراهية واقسى مما يحتمل أن يأمر المسيح بمحبة الغير ، ذلك يعني ان تكره نفسك !

ان مفعول الكراهية تافه للغاية ، وماذا بأمكانك ان تفعـــل لشخص تكرهه ؟ تضربه ؟ تقتله ؟ كلا ليس في كل الأحوال . فمعنى ان تكره ان تحب نفسك فلن تؤذي نفسك لانك تكره هذا او ذاك ،اننا اخيراً لا نستطيع ان نفعل لمن نكرهه – باستثناء المؤامرات والدسائس الصغيرة – إلا ان نكرهه فقط ..

ولكن عندما نحب ! ؟

دمر قيس نفسه لأنه يحب ، وانتحر روميو لأنه يحب ، وانهى فرتر حياته كي يترك لشارلوت ان تسعد مع من يحبها ، وفسخ كيركجارد الخطبة لانه ليس صالحاً لأوريجن مع انه يحبها ، ويقذف الجندي الياباني بنفسه ملغوماً على العدو لأنه يحب ، ومن أجل الحب يعيش جنود فتح بين فكي الكماشة ..

حقاً عندما نحب ندمر أنفسنا ، وعند نكره نفقد ايجابيتنا غالبـــاً.

وطافت بي في جلستي نسمة خفيفة ملأى بشذا الازهـــار والورود ، وابتسمت لنفسي : تبذل الزهرة من نفسها دائماً ، وحتى آخر رمق . ومع أن كل شذا ترسله يخطو بها الى النهاية الا انها لا تستطيع ان تمتع شذاهـــا من الانبعاث وهذا هو المحب ! يحترق لكي يضيء للغير ..

لقد فقد صديقي معنى حياته ، وتخلص منها بطريقة حلزونية فيها الشيء الكثير من الجبن ، وبشكل ما فقد انتحر .. !

– سيكارة !

– شكراً

–والله تأخذ

– طيب شكراً

واخذت السيجارة ، وانحنيت اشعلها من عود الكبريت الذي كـان بين يدي الجالس بجانبي في الباص ، وجذبت منها نفساً طويلاً وارسلت الدخان الى أعلى .

– اعتدى اليهود على الاردن .

– صحيح ؟!

ينبغي ان اوهمه بأني لا اعرف كي اعطي لما يقوله نكهة الخبر الجديد ، لم احرمه من هذه المتعة .

– لكن ردوهم على قفاهم .

– عظيم جداً .

– لكن أخشى على العرب .

– ليش ؟!

– « يغلبوا في كمشة يهـود ، فضيحة يهود يغلبوا عرب » .

– كلا لم يهزمنا اليهود ، ولكن هزمنا انفسنا !

– مش اليهود ؟!

– مش اليهود ؟

– لكن كيف ؟

– لاننا بالاسم ثلاث عشرة دولة ، وبالفعل نعد على أصابع اليد الواحدة ولم نخلص للقضية بما فيه الكفاية . كنا نحارب بقصائد الشعر .. والخطب وباحتفالات ذكرى النكبة فجلناها نكبتين ، وكان بعض العرب يحارب انظمة حديثة بانظمة عتيقة ، وعقلية علمية بعقلية خرافية . واعتمدنا على ضمير عالمي ميت منتن ، ومجلس أمن دولي تسيره اهواء خاصة وعالم غريب لا يفهم الا منطق القوة .. كن قوياً تكن محقاً .. أما العكس فليس صحيحاً ..

– السنا على حق .

– كلا حتى نملك القوة .

ـ الم نملكها ؟
ـ بدأت بوادرها تظهر في « فتح » .

وعرفت اسم الرجل وعمله ، كان موظفاً في دائرة حكومية . مدمناً قراءة الصحف يستمد رأيه من تعليقاتها ، ونشأت بيننا علاقة ثم وصل الاوتوبيس محطة « العيساوي » فنزل بنفس السهولة التي أنحرف بها صديقي عن طريق .. وفارق العالم ..

هكذا نلتقي لنفترق ، وفي نفس اللحظة التي نلتقي فيها نعد العدة للافتراق .

قد لا يكون الامر شعورياً تماماً ، ولكنه لا يخلو في تجاهله من سوء الطوية . الطفل منذ ولادته يحمل موته ، الصديقان عندما يلتقيان يفترقان . واب العائلة وهو جالس بين عائلته . ربما طاف به خاطر انه سيغادر مجلسه إلى الابد ! ولكن مثل هذا ينغص عيشه فليس ثمة سبيل إلا تجاهله ..

الامر أولاً واخيراً لا يخضع لقاعدة ..
مطلق العبث ..

ـ سيجارة !
ـ شكراً .

تم الحديث وتعارفنا ثم افترق ـ صدفة ـ كل شيء بالصدفة . نحن في العالم ركاب باص لكل منا محطة سيغادر فيها الى الابد ، ومثلما التقينا في الباص بالصدفة نفترق بالصدفة .

نلتقي لنفترق ، ولا يمكن ان ندعي بأننا نفترق لنلتقي في مكان آخر ..
لقد ماتت هذه الفكرة مع صديقي .
انتهت معه ..

* * *

(٣)

كانت الضحكات ترن في بوفيه الكلية ، وفي الممرات ، وكان الطلبة يتندرون ، ويهرجون ، كانوا مندفعين في كل شيء وكأنهم ينتقمون من شيء مجهول يواجهونه بعصبية. والطالبات أيضاً منشرحات الصدور باسمات الثغور إلا يعلم هؤلاء جميعاً ان صديقي قد مات ؟!

لقد كان يوماً مثلهم ضاحكاً متندراً على « سي ابراهيم » جرسون البوفيه أين الان اليـد التي تغافل لتمتد فتجذب « شنب سي ابراهيم » ؟ أنها الان لقمة سائغة للدود لا تملك امكانية الدفاع ، ولكن من أين يأتي الدود ؟

كنت يوماً في زيارة لمقبرة البلدية ، وقفت أمام قبر ما يزال ينتظر صاحبه ، ونزلت اليه . وتساءلت : من أين يأتي الدود ؟ كان القبر نظيفاً..

والآن تطرأ على ذهني الإجابة : من نفس الجثة يتكون الدود ، ان الدود بعض منا حين نموت .. !

لقد مات صديقي الا تفهمون ذلك ؟ لست اريدكم ان تبكوه . ولا ان تحزنوا عليه . كلا بل اقول لكم : كل منكم يحمل موته ويحمل دوده . فعيشوا حياتكم ... سابقوا الموت الذي تطون عليه صدوركم .

واضع يدي على الجانب الايسر من صدري ، وأشعر بدقات قلبي وأفكر : قد يسكن في اية لحظة ، وعندئذ ينقطع الخيط .. ماذا ينقطع الخيط اذن هذا ما يعنيه صديقي بكلماته ، انه ارتبط وثيق ورائع بين الحياة والحب . الأمل ربما هو المحرك وراء دقات هذا القلب . نحن نعيش على خدعة اذا

انكشفت ... ! حينئذ نفقد الأمل وتهمد الخفقات ويبدأ الدود في التكون ..

نحن نحب دائماً ما نأمله . والأمل خدعة تجعل حياتنا محتملة ..

صديقي اني الآن امتلكك في ذاكرتي ..

ولكن لـم أتذكر كل هذا الان ؟

لقد نمت قليلاً قبل المجيء إلى محاضرة المساء ، ومن ثم قمت مكتئباً ، وحزيناً . وكانت هذه الذكريات تفرض نفسها علي، فلم افقه المحاضرة ، وخرجت اقبع على هذا المقعد .

واخذت الاصوات حولي تخفت ووقع الاقدام يبتعد ، وساد الصمت حولي وطنين حاد في اذني ونظري مثبت الى الأمام ولا ارى شيئاً ..

هاتيها ودعي امر الغد للغد .. كل في حينه ، لست ساذجاً الى الحد الذي اضحى فيه باليوم مقابل غد لـــن أعيشه مطلقاً .. لم يعش صديقي غده .. كلا هاتيها ... افرغيها ... فلقد بلــغ السيل الزبي . وسوف اغادر بعـــد الثمالة هذه المنضدة . وهذا الكرسي ، ولن تحفظ هذه الصالة انفاسي . سيتنكر لي كل شيء سيظل الكرسي في مكانه يستقبل غيري، وستظل المنضدة لامعة ، والصالة ملأى غير شاعرة بغيابي ، وستظلين انت يا من تجلسين تبعثين بالابتسامات مجاناً ، انك كهذه المنضدة ، او هذا الكرسي . وظيفته ان نجلس عليه ووظيفتك ان يعتليك الآخرون !

ولكن اعرف ان وراء كل هذا نفساً يحترق ، وقلباً مكلوماً.. تماماً كقلب صديقة صديقي ..

وهذه السحب من الدخان المتصاعد من احتراق السجاير لا يمكن ان نفرق بين انواع السجاير الصادرة منها . . . كذا نحن غداً سنظل عظاماً ملقاة في حفرة عميقة لا يستطيع احد التمييز بينها .. انها عظام كفى ..

وكان هناك مخمور اخذ يبكي حين بلغ الثمالة ، وهناك ارتيست تسارع إلى التواليت لتعيد طلاء وجهها بالمساحيق ، وكنت أحدق في التي امامي ،

وابتسامة ساخرة تنطبع على شفتي ، والعرق يسيل من وجهها ملوناً بالاصباغ والمساحيق ،وبدأت تظهر تجاويف عينيها ، وتجعدات وجهها وتهدل شفتيها ، ونظرت حولي ، واعدت النظر اليها ، فلاحت لي انها متبرمة ثم نهضت : استأذن .

ولم اتكلم ، واصلت النظر اليها فهمست بلكنة غريبة : صغير لكن ... ماذا اقول لها ؟ أأقول لها اني الحظ تلك المقاومة الباسلة التي تبذلينها في وجه الموت الذي يزحف على وجهك ، ويسمه بسمة لا مناص منها ؟

أأقول لها اني شاهدت في عينيها الغائرتين ظل الموت .. موتها ..؟!

كلا .. دعها تعش لآخر لحظة شاعرة بأنها مخلدة ، وستسهر آخر مرة ، وستشرب حتى تسقط اعياء ثم لن تنهض ابداً ، وستترك كل شيء ، حتى أخص اشيائها كعلبة البودرة ، او اصبع الروج ، وسيبقى المسرح الذي تقدم عليه رقصاتها سعيداً لاستقبال اخرى ، ولن يشعر احد بغيابها إلا الجرسون الذي كانت تمنحه بعض النقود لكي يخلط لها مشروبها بالماء ، وليضحكا معاً على الزبائن ، وحتى هذا سينساها سريعاً لانها هناك اخرى تكمل معه الدور !

فلم أمتلك اذن ؟

لم يحمل صديقي معه شيئاً ، بل ترك كل شيء فلن اتعب من اجل شيء بالتاكيد سأتركه خلفي ، لن آخذ إلا قدر حاجتي ، وسأترك الباقي ، فماذا اصنع بما اكدسه ثم اتركه واغيب في باطن الارض .. لن اغيب وخلفي قرش واحد ...

نتقاتل من اجل ان نملك الاشياء ، ثم نترك كل شيء

وتلك الاشياء تملكنا ايضاً : ايستطيع صاحب العمارة ان يكون حراً ؟ ابامكان صاحب الثروة ان يكون حراً .. كم هم تعساء هؤلاء الاثرياء . ولكنهم لا يكتشفون هذه الحقيقة الا بعد تورطهم .

قامر بكل شيء فان وجودك مقامرة !

مقاعد هذه الكلية . ادراجها ، حجراتها : كم شاهدت من أناس وكم ستشاهد ، وكم جلس على هذه المقاعد من بشر ، وكم أحاديث تبودلت وعهود أبرمت ثم يرحل فوج ويأتي أخر ، ويتشتت الجميع إلا من ذكريات يجترونها أحياناً ، وكل شيء باقٍ ، لم يحمل احد معه شيئاً .. لم يحمل احد مقعده ولا سبورة ، ولا حجرة .. اجلس على الكرسي ثم اتركه فيجلس عليه غيري اشرب الشاي ثم أعيد الكوب إلى « سي ابراهيم » ليشرب به غيري ... لم لا تكون كل الاشياء هكذا « للأستعمال العام » ...؟!

لم يأخذ صديقي معه شيئاً ، ولن آخذ انا معي شيئاً . ولا أنت ، ولا أي واحد ، فلم أمنع عنك ما سوف اتركه ...؟!

لنشبع اذن حاجتنا معاً ما دمنا سنترك كل شيء خلفنا !

— مساء الخير !

وافقت من أفكاري ، وكنت ما أزال جالساً على المقعد الحديدي ، ونظرت الى القادم ، وكان الوقت حوالى السادسة مساء .

— خير يا ابراهيم ..

— لم خرجت من منتصف المحاضرة ؟

— تعبان شويه ... أجلس .

كنت اشعر بعدم رغبة في ان اقول اي شيء ، ليست لدي رغبة في الحديث عما يخالجني ، كنت اشعر ان افكاري غريبة مثلي ..

— ماذا تفعل هنا ؟!

قال ذلك وهو يتخذ مكانه بجانبي ، بينما كان عود ثقاب ، وسيجارة بين شفتيه ومددت يدي وسحبت علبة سجائره من جيب القميص الصدري واخذت سيجارة اشعلها من عود الثقاب الذي كان في يده . واسندت رأسي

إلى مسند المقعد ، وانا أنفث الذي الدخان بقوة احمله ذلك الاحتراق الذي كان في داخلي .. وأجبت .

ـ افكر .

ـ فيم ؟

ـ في العالم .

والقى الي بجملة مهملة ، سقطت منه دون ان يفكر فيها جيداً :

ـ وانت مالك والعالم .. دعك من هذا التفكير . هل أنت خالق العالم ؟

ـ كلا ولكني انا الذي اعيشه وهو لا يعجبني يثير اشمئزازي ..

واتجه الي كان مصمماً على اشياء قد اعد العدة لها مسبقاً .

ـ ستتعب نفسك بهذا الشكل ، انت ترهق اعصابك اتعتقد انني لم الحظ فيك ذلك .. انت قلق بشكل فظيع انظر يدك تمسك الكوب انهـا ترتعش . والسيجارة انظر اليها جيداً .. انك تهدم نفسك .

ـ وماذا تريدني ان افعل ؟

ـ سلم أمرك لله ، وصل ركعة بقلب طاهر ، وسيزيزل كل شيء وابتسم وابتسمت ، ونفث دخان السيجارة الذي تتابع كخيط منفوش ، والقيت رأسي بشدة على مسند المقعد ، وظل ينتظر ان اعلق ، كنت اتمنى ذلك فعلاً ، ولكن قد فات الاوان .

ـ فأردف :

ـ جرب !! ..

* * *

(٤)

الشمس تنحدر نحو المغيب ، والنهار يوشك ان ينتهي ، وهناك في زاوية بين الشجرة المتطاولة ، وخلفية المدرج رقم تسعة يظهر الشفق الذي يودع الشمس الراحلة كانه جمرة من نار ..

وعدت من جديد افكر : متى شعرت بهذه الغربة . وهذا التوحد ، وهذه الوحشة، التي اشعر بها فيضيق صدري ؟ يخيل لي انني في غابة ملأى بالوحوش غير المرئية، وكان قلبي يدق بعنف ، وكنت متوتر الاعصاب مستفراً ربما لو شعرت .. لو عرفت متى شعرت بهذا لأول مرة اذن اكون قد وجدت الحل .

كانت تسيطر علي فكرة ان لدي عقدة من شيء ما ، وتكونت في فترة ما . ولكن افكاري كانت تسقط في بئر عميقة لا قاع لها . وكان ارتياعي يصب في نقطة مبهمة يتدفق اليها كالطوفان جارفاً أمني وراحتي . وكنت انفث دخان السيجارة الخامسة . والاعقاب تتراكم عند موطىء قدمي واتاني صوت الجالس بجانبي متسائلاً :

– فيم انت مشغول ؟

كان يقلب اوراق دفتر وينظم بعض الأوراق المبعثرة .

– بلا شيء !

– كلفني الاستاذ ان اسأل عنك .

قال ذلك دون ان يرفع عينيه عن الاوراق التي كان يقلبها .

ـ شكراً .

ـ حدثني ربما تنفس عن غيظك .

ـ بماذا احدثك؟ افكار لا استطيع لم شتاتها تطرق جمجمتي ، وتتكالب على الخروج .. وبرهة يخيل لي انني افهم ، ولكن اجد انني لا افهم ..

خيل لي وانا اراقب جسد صديقي يحشر في القبر ، والتعازي المتبادلة ، وانا انتقل ببصري من قبر إلى أخر في صفوف منتظمة .. آنذاك خيل لي انني فهمت ، وفرحت بذلك وكاني اقبض على ثروة طائلة جريت العمر خلفها .. ثم .. ذهبت الى بار ، وجلست حسنا . وكنت اشرب نخب المولود الذي ابتدأ ينموا في داخلي .. ولكن بعـــد ذلك انهرت سجوداً امام علامـــة الاستفهام لماذا ؟! انها قمة المعضلات في عالم نفقد فيه المبرر الذي علينا صنعه .. ولكن لم اعد استطيع منحـــه نفس القيمة ..

وهنا فقدت المولود ، كان وهماً ، وحملاً كاذباً ، وزيفاً .. وأنا لم أفهم اهذه أرضي ؟ أهذه كتبي ؟ أهذه كليتي ؟!

كلا لا شيء يخصني ، حتى اطرافي انزعج احيانا من فكرة انها لي ، كل شيء غريب غريب . غريب ..

ـ ولماذا ترهق نفسك بأمور لا طائل وراءها ؟

ـ لماذا ؟ .. عدنا من حيث بدأنا .

وصمت ولم يعلق .

ان تحيا ببساطة ذلك شيء مريح ، ان تتقبل الدور الذي اعد لك ، وأن تتقمص أو تتقن ذلك ، وعلى قدر الاتقان يكون نجاحك.. ان تسير في طريق يخطط لك . وان تعرف ما تجب معرفته ، وتتجاهل ما لا تجب مناقشته ، ان تحفظ في ذهنك جيداً قوائم طويلة من النواهي والاوامر . وتعترف لهم بأنك اخطأت اذا رأوا هم ذلك لكي يزيد قدرك في عيونهم ، وبالجملة ترتدي البذلة التي أعدت لك سابقاً بكل المواصفات المطلوبة ؛ اخلاقك

سلوكك ، معارفك ، ومقابل كل هذا تحصل على كلمة ثناء ، وحياة هادئة مطمئنة لا يعكر صفوها شيء . اولست بين القطيع ما يصيبك يصيبه ..؟

ولكنني نعجة ضالة تمردت على القطيع ،ومزقت البذلة لانها لا تناسبني .

– تذهب للسينما ؟

وصمت قليلاً . وانا اقـذف بعقب السيجارة ، واشعر باختناق ، واسحق العقب بقوة، ولكن تلك الافكار المنبعثة في داخلي لم استطع سحقها

– الفلم ..؟!

– فارس بن حمدان .. بطولة سعاد حسني .

وفكرت : انه ذلك السجين الذي كان ينزف شعراً .... سعاد حسني ؟ الم تمت مع صديقي الم يقل لي مثل هذا ؟ ولكنه الآن انتهى !

– شكراً لا رغبة لي في ذلك

كانت نسمة هواء تحرك اغصان الشجرة الضخمة فوق روؤسنا ، فينبعث منها صوت يشبه حفيف تلك الشجرة التي جلست في ظلها ، في المقبرة بانتظار الصلاة على جثمان صديقي ، وكانت تبعث في نفسي وحشة وفراغاً هائلاً أفر منه ولا استطيع ..

واستغرقني حفيف الاغصان في صمت ، وعندئذ ترامى إلي صوت أخذ يقرب رويداً رويداً ... كان عبارة عن دقات رتيبة تفصل بين احداها والأخرى فسحة قليلة من الوقت ، وارهفت السمع ونظرت محدقاً ، وتحولت إلى اذن صاغية وعيون محدقة ، خيل لي انها خطوات منكر ونكير اتياً يطالباني الحساب .

– ماذا فعلت في دنياك ايها التعس المنكود ... واقتربت الخطوات أكثر .

– وماذا سأفعل ؟ ما فعلته قد فعلته لست نادماً على شيء وارتفع صوت

منكر ونكير ، كان الرعب وعيون تقــدح شرراً ، وكنت محشوراً في المستطيل اشعر بضيق فظيع ، كنت تحت سيطرتهما .

– ولكني اسألك وعلى قدر السؤال اريد الجواب وامسك بخناقي ، ورفع قضيباً مدبب الرأس . وهم بأن يغمده في صدري .

قلت له : الا تعرف ما فعلته .. اذن لم أفعل شيئاً .

وتركني وضحك بقوة ، اسقط ثانية .

– ولكنك اتيت الشر

– كلا ..

– اتصدق انت الإنسان وأكذب انا الملاك ؟ !

وضقت به ،

– ولم تسألني ما أنت تعرف ؟

– لكي اختبرك

– والنتيجة ! ؟

– تمارس الشر حتى في القبر

وواتتني الجرأة كي اصرخ في وجهه غير مبالٍ بقضيبه المدبب ، والأشرر عينيه المتطاير ، ولا يده التي عادت تمسك بخناقي .

– اسمع ! انا لا اخافك ! لأني ميت ، الا تفهم ما معنى اني ميت ؟ ! ان لا تستطيع ان تلحق بي أكثر مما انا فيه وماذا بعد الموت ؟ !

واستشاط غضباً ، ورفع القضيب وهوى به علي ، وقبل أن يصل إلى صدري توقف الصوت :

– مساء الخير !

وافقت من ذلك الكابوس مذعوراً ، وسخرت من نفسي ، كان العرق يغسل جسمي ، وتوقفت عن الشعور بحفيف الشجرة

— مساء الخير أهلاً وردة ، أهلاً فايزة !

وحاولت ان اداري اضطراب اعصابي ، كانتا طالبتين ، احداهما قمحية طويلة الشعر جعلت منه تاجاً يزين رأسها ، وكانت ترتدي معطفاًنصفياً وفي قدميها حذاء بكعب عال ، أما الأخرى فكانت تضع على رأسها منديلاً يغطيه ، وترتدي معطفاً طويلاً حتى اسفل الركبة ، وتحمل كل منهما حقيبة في يدها ..

— تشربوا حاجة ؟. انا في حاجة إلى قهوة هكذا قالت وردة، وقلت :
— حسناً هاتي معاك قهوة على ان تكون سادة وردت فايزة بدهشة :
— سادة ؟ انك ترهق نفسك بالمذاكرة ونظرت اليها باسماً :
— ولا هذا

واتجهت وردة إلى نافذة البوفيه لتأخذ الأشياء المطلوبة ، وبقيت فايزة واقفة أمامنا .

وابتسم زميلي ، ومن عادته ان يضحك قبل ان يتكلم ، ويتكلم وهو يضحك اعني يتكلم ويضحك في آن واحد ..

— ماذا تفعلان في هذا الوقت ؟
قالت — وانتم ؟
اجاب — لسنا معرضين لهذا السؤال
— الأنكم رجال ؟!
— بالطبع
— كنا في المكتبة .
وتابعت الحوار ثم علقت قائلاً :
— ستجدان السؤال امامكن ولن يقنع اصحابه بسهولة .
واشارت فايزة بيدها قائلة
— اطمئن نحن لا نسمع ابداً مثل هذا السؤال

قلت — غريبة !

قالت — يعني ؟

— الا تسألان !

واتت وردة تحمل طبقاً عليه المشروبات ، وكانت قد تركت حقيبتها بجانبي .

— عما تتكلمون ؟

كانت لها طريقة خاصة في نطق الكلمات لفتت انتباهي ، فجعلت احدق فيها ممعناً النظر في كل قسمة من قسمات وجهها ، وعندما تركز انتباهها كان ذلك يتخذ تعبيراً خاصاً على وجهها الأسمر الدقيق القسمات ، كانت تقطب حاجبيها ، وتزم شفتيها ، وعندئذ اعرف انها مهتمة بالحديث ، وكانت طريقتها هذه تجعلني اضحك ، طريقة أحب ان الاحظها واضحك ، واما إذا ارادت الكلام فإن الكلمة ترتسم على وجهها قبل ان تلفظها شفتاها ..

واعادت السؤال : عما تتكلمون ؟

وتحولت اليها فائزة ، وكان هناك عصفور على غصن الشجرة التي كان مقعدنا تحتها ، وهبت نسمة حركت الغصن الذي كان العصفور متشبثاً به ،

— قالوا اننا سنتعرض للاستجواب لاننا تأخرنا .

ولم تنبس ، تقدمت إلى بالطبق ووجهها متخذ ذلك التعبير الذي يبعث في رغبة في الضحك ، وأخـــذت قهوتي ، وعيناي على وجهها . كنت أخمن مـــا ستقول ، وتحولت إلى زميلي ، ثم أخذت قهوتهـــا في يدها واخذت رشفـــة وتمتمت بصوت خفيض ، وكانت عندما تتحدث تستخدم عينيهـــا في التعبير :

— انكم تسيئون بنا الظن

ورفعت كتفي وانا اتابع تعبيرات وجهها ، وشعرت بنوع من الراحة

قلت : كلا

وقال زميلي : هذا هو الشائع .. ليس هذا رأينا .. الآن الساعة السابعة الا ربعاً ، وليس من المعقول ان تمكث فتاة خارج البيت إلى هذا الوقت دون التعرض لإبداء الاسباب .. انها ... جريمة في رأيهم .. ! وردت بسرعة: ولكننا طالبات. قلت مواصلاً النظر إلى حركاتها التعبيرية :

– كثيرون يعتبرون ذلك مجرد ترف ، قضاء وقت حتى الزواج .

واخذت رشفة من فنجان القهوة ، ثم جذبت نفساً عميقاً من السيجارة التي في يدي واتاني صوت وردة وهي ترشف قهوتها :

– وانت ! ؟

وخفضت بصري – لا أهتم بهذه الأمور..

– خيراً تفعل فأنها مقرفة ؟! .

ورفعت اليها عيني ، وتقابلت نظراتنا ، كان في عينيها عمق لا استطيع وصفه ، ثم حولت عينيها إلى جهة أخرى ، وغيرت وضع رجلي وشعرت بأن ثمة شيئاً يتغير في داخلي ، نوع من الرهبة نوع من الإحساس اللطيف بدأ يبعث حرارة هادئة في دمي نوع من الهدوء الحالم ، وعندما التقت نظراتنا شعرت كإنني في محراب مقدس ..

وأخذ زميلي يتكلم

– ولكنها مشكلة ..

قلت – ليست مشكلتي .. ولكنها مشكلتهم

وكانت فايزة تنصت صامتة ، كانت قليلة الكلام ، وإذا وجه اليها الحديث ابتسمت واحمرت وجنتاها ، ونكست رأسها تحدق في الارض كانت طيبة جـــداً وخجولة جداً ..

ونظرت وردة إلى ساعة يدها ، ثم نقلت البصر بيني وبين فايزة ، وكان زميلي ابراهيم يشعل عود ثقاب وسيجارة بين شفتيه ، ومددت يدي اسحب سيجارة من علبته ، وفي يدي الاخرى علبة سجائري فارغة اعتصرها بين اصابعي .

– حان الوقت هيا بنا !

قلت – فعلاً ليل

ولم تنبس فايزة بكلمة بل ابتسمت ، واتجهت ترتقي سلالم المدخل إلى الفناء الذي كنا نجلس فيه ، وتبعتها وردة . وكان الظلام قد بدأ يكتسح الضوء المتخلف من الشمس الراحلة ، ونهضت من مجلسي ، واحسست بدوار لاسرافي في التدخين ، وتهالكت على المقعد ثانية ورأسي بين يدي وأوشكت على الوقوع – شعرت بنور احمر قوي من عيني وشرخ ينطلق من مقدمة راسي إلى مؤخرته واضغط بيدي على رأسي كنت أخشى ان ينفجر ..

واتاني صوت وردة من أعلى السلالم وهي تهم بالرجوع

– ما بك ؟

وانزلت يدي ، وحركت رأسي بقوة محاولاً طرد الصداع الذي يشق جمجمتي . وقلت

– لا شيء مجرد صداع

وقال ابراهيم وهو يرتقي السلم ، وكانت وردة واقفة في اعلاها وعلى بعد منها قليل كانت فايزة

– تعبان شوية .. خرج ولم ينه المحاضرة

قالت وردة – مريض ! ؟

واكمل – فكرياً

وصمتت . ولم تعلق ، وجمعت كتبي وأوراقي . وارتقيت السلم ببطء صامتاً . وتبعني ابراهيم وسرنا ببطء حتى بلغنا الباب الخارجي ، وقفت اجيل البصر ، بينما كانت وردة وفائزة قد لحقتا بي وكانت

السيارات تمرق مرسلة اضواءهـا ، وكان ثمـة افراد يهرولون وكنت احدق في كل هذا عندما اتاني صوت ابراهيم

– والآن ! إلى إين ؟

– إلى البيت

وكانت وردة وفائزة تتبادلان حديثاً خافتاً على بعد منا ، وظللت واقفاً أجيل الطرف ، كان يبدو لي انني اراى الشارع لأول مرة ، كان شعور غريب يأخذ بمجامع نفسي ، كنت منفصلاً عما حولي ، لم يكن ثمة اختلاف في نظري بين السيارات وراكبيها ، كنت اراقب كل شيء من الخارج وكان مرأى الناس يهرولون او يتصافحون يخيل لي انني وسط جمع من المجانين ..

عندما تراقب الناس من الخارج فإن سلوكهم جنون يغتصب من شفتيك ابتسامة ساخرة : لكم يتعبون انفسهم !

وإذا كان ثمة إله فإنه لا يتوقف عن الضحك وهو يراقب تلك المخلوقات – تلك الدمى ..

– تصبح على خير .. « ان شا الله لابأس »

– شكراً مع السلامة ..

* * *

إِلَى المَنْفَى

(٥)

اتجهتا تقطعان شارع الاستقلال غرباً ، وراقبتهما حتى اختفتا في زحام المارة ، كنت احمل عنهما فكرة طيبة ، إنهما مثاليتان ، على قدر كبير من طيبة القلب ، ونقاء السريرة ، وما يعيبهما استسلام تام وخنوع .. وكانت تلك نقطة الضعف .. !

حركت قدمي انحدر شمالاً من شارع الاستقلال ، حتى وصلت الي تقاطعه مع شارع عمر المختار ، فسلكت شارع عمر المختار سائراً تحت الأقواس وكانت مضاءة . والمحلات مزدحمة بالزبائن ، والجو رطب نوعاً .. وكانت هناك امرأة تحمل بطنها المنتفخ ، وشعرت بقشعريرة ، وأوشكت ان اتقيأ ، لقد أدركت حكمة إبعاد النساء في البيوت ان مرآهن هكذا يثير الاشمئزاز ، ولا أدري لم أنا أكره إلى هذا الحد المرأة الحامل ؟

كان الطفل محتمل الحضور إلى الدنيا في أي وقت ، وكانت تسير متباعدة الساقين ، ولم اتخلص من فظاعة المنظر الا بأن أدير رأسي ، وكانت صورة الزوج الذي يرافقها ترتسم في خيالي ، كان يرتدي قميصاً خارج البنطلون ، وكان (كرشه) المنتفخ يجعل القميص من أسفل على بعد نصف متر من ساقيه ، وأوشكت ان اعيد النظر اليهما لأرى ايهما الحامل ؟ !

وكان طفل يغسل سيارة واقفة في ميدان البلدية ، وطفل آخر يعرض خدماته على رواد المقهى . وكان يحمل صندوق « اللمعة » وكان طفل آخر راكعاً تحت اقدام شخص قذر يلمع له حذاءه ، وكان ذلك القذر منتفخ

الأوداج على كرسيه ، يجيل النظر متباهياً ، بينما الطفل غارق في عمله ..

كان الجو بارداً إذ كان الوقت أواخر ديسمبر ، وكان الطفل حافي القدمين ويرتدي ثوباً أبيض ولكنه استحال من الأوساخ أسود ، وسروالاً ممزقاً ومرقعاً بشكل فاضح ..

– كلا ليست اللمعة جيدة ..

كالقضاء والقدر كان ينتصب ذلك القذر على رأس الطفل ..

– انظر سيدي ان الحذاء يلمع كأنه جديد

– لا .. لا .. اعد التلميع

– ولكن قد اعدت مراراً

– يجب ان تعيد ذلك مرة أخرى

– ولكنه قرش يا سيدي .. قرش واحد ، فإذا قضيت في تلميع كل حذاء ساعة فكيف اعيش ؟ !

– لست مسؤولاً عنك .. أنا لم اخلقك ، قرش مقابل خدمات .

– ولكنه قرس فقط

– اليس القرش نقوداً ؟

هكذا ؟ ! لست مسؤولاً عنك ! لم اخلقك ، لقد خلقت هكذا خداماً للغير ، بينما الغير ولدوا ليُخدموا ، وينبغي ان ترضى بذلك انه قدرك !

اولئك القذرون يستغلون كل شيء أبشع استغلال .. خلقت هكذا .. هذا قدرك .. صدقت يا صديقي انهم يستغلون كل شيء لصالحهم ... خلقت هكذا !

اصرخ فيه ايها الطفل : كلا لقد جعلني بطنك المنتفخ هكذا ..
لقد جعلني حـــذاؤك الثمين هكذا ..
لقد جعلني اب يؤمن بهذا هكذا ...

ولكن ماتت هذه الاسطورة – اسطورة القضاء والقدر ، لم يُخلق احد

سيداً ولا آخر عبداً ، لم تعد كافية لاقناع أحد

اصرخ فيه ايها الطفل البائس ، ماذا ستخسر انك خاسر في الحالتين فارم بيأسك عله يبعث الأمل

ولكنه كان طفلاً ومحتاجاً ، كان يرتعش ويده تمتد قائلاً — كفاية .. اعطني القرش

ويصرخ القذر

— لن اعطيك الا إذا لمعت الحذاء جيداً

وبكى الطفل ، وصفعه القذر ، واجتمع الناس ، فقـــذف اليه بخمسة قروش وقعت في غدير موحل ، وجرى الطفل اليها ، وخاض بيده في الغدير الموحل ، وبحث عن الخمسة قروش حتى وجدها فدسها في جيب سرواله ، ورفع يده الموحلة يمسح دموعه ، فاختلطت الدموع بالوحل على خديه ..

وقفت أرقب عن بعد ، والناس يحاولون تهدئة ذلك القذر وهو يزمجر :

— « يسرقوا سرقه « ما يبوش » يخدموا .. فلوس « أوبس » وكان صوت الواعظ ينطلق عبر آلات تكبير الصوت في مسجد ميدان البلدية ، « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ويسارع بعض الناس إلى ذلك القذر : « معليش » يا سيد خليل وآخر : المسامح كريم ... !

يسامح ؛ الصافع ام المصفوع ، الظالم أم المظلوم ؟ وتوجهت إلى الطفل الذي انزوى خلف « القيسان » وربت على كتفه ، فرفع إلى عينين مغرورقتين بالدموع واردفت :

— ينبغي ان نثأر يوماً ما ! !

وكانت أصابع القذر مرتسمة على خده ، ورفعت يدي اتحسس خدي ، وتذكرت في نفس هذا المكان منذ أمد بعيد كان الميدان خالياً الا من سيارة واحدة وكان من النادر ان تشاهد سيارة في ذلك الوقت، وكنت طفلاً لم

اتجاوز السادسة ، حافياً ولاحظت السيارة لامعة ، كانت من نوع « همبر » وأثارت انتباهي ، فتوجهت اليها ، وانثنيت ارقب غطاء العجلات اللامع ، وكان الوقت صباحاً ، وكانت صورتي تنعكس على غطاء العجلات اللامع ، وكنت اندهش لذلك ، وأحرك رأسي فتتحرك الصورة ، وكنت اتسلى بذلك . ثم إذا بيد تنهال على وجهي بصفعة جعلتني ارتمي على الأرض ، وأذهلتني المفاجأة ، وفجرت الدموع في عيني ، ورفعت يدي اتحسس خدي مثلما يفعل هذا الطفل الآن .. ولكني لم ابك ولم ابك ابداً ..

حدقت فيه جيداً ، كان ذلك القذر يرتدي بذلة سوداء ، ورباط عنق زاهي الألوان ، كان « كالبلياتشو » حذاؤه أبيض ، وشعره يكاد يسيل منه الزيت .

ووقف جمع من الناس يتعجبون : كيف لم ابك ! !

لقد كظمت غيضي ، وأوقعه ذلك في حرج عظيم ، ومن ثم أخذ يعلل فعلته : انه يهم بسرقة غطاء العجلات ..

انا اسرق غطاء العجلات ... أنا ... ؟ ! كنت في السادسة من العمر لا أعرف حتى كيف ارفعه من مكانه ، ولم أكن قد شاهدت سيارة إلا مرة واحدة . كان مرسوماً عليها صليب [1] ضخم حين حملت ابي ولم يعد ...

وجذبتني اختي من يدي واسرعنا عائدين إلى بيتنا ، تاركين القـــذر يغلي .. ويعلل تصرفه بما شاء ..

لقد مضى على هذه الحادثة زمن طويل جداً ، ولكن ها هي صورة كل ذلك تنبعث أمامي .. ما زال الصغار يضطهدهم الكبار .. ! ونظرت بحقد واحتقار إلى ذلك الرجل وودت لو استطيع فأرفع يدي وأصفعه بشدة ، واتى رجل البوليس يسأل :

---

(١) سيارة اسعاف تابعة للجيش البريطاني حوالى سنة ١٩٥٠ م .

« — ايش فيه ؟ »

وانبرى الرجل ذاك متقمصاً ثوب الذلة :

— « فرخ حرام قلت له لمع حذائي فمسحه بسرعة ثم أخـــذ يطالب بالفلوس » .

واتجه رجل البوليس يعنف الطفل لم يستمع اليه،لم يسأله، وإنما أخذ يزجره بقوة وشدة ، وانسل الطفل من زاويته مكسور الجناح ، محطم النفس ، وكنت ازمع التدخل ولو بكلمة ، ولكن بدلة البوليس كانت تعني اشياء واشياء ..

وحدثت نفسي : كيف يخرج مثل هذا الطفل سوياً ؟

وكنت خلال ذلك ابحث عن الله ، كيف يخلق مثل هذا ويتركه وسط ذئاب قذرة لا ترحم ! ؟ ان دموع هذا الطفل افقدتني الثقة في الله . كيف لم تحركه هذه الدموع ؟ ربما هو أيضاً كبير مثل هؤلاء الكبار ... ! ؟ !

ومطّ احد الناس شفتيه ، وهز رأسه في حركات دائرية وهو متوجه ببصره إلي ، فعلقت قائلاً :

— « عليش تقدر ياجحا »

فاردف ذلك الشخص مكحلاً : « عالحمير الصغير »

وكانت في صميم ذلك القذر ، وكنت ازمع التحرش به لأدق عنقه ، كنت أشعر أني استطيع ذلك ، اذ كنت أنصهر قوة .. وثورة ، وتمنيت ان امرغ أنفه في التراب ..

ولكنه نادى طفلاً آخر ، ومد اليه رجليه ، واستند الى مسند الكرسي في جلسة مترفة مريحة ، وهو ينفث دخان سيجار ضخم والطفل يقبع تحت قدميه يعالج حذاءه الفاخر .

كان القدر سادياً ... !

كانت محلات سوق الظلام قد بدأت تقفل ، ويغادرها أصحابها في صمت ممتلئين بالأحلام وبالنوم الهنيء بجانب المنتظرة على الفراس ..

وكانوا غير شاكين اطلاقاً .. بل ليس ثمة ريبة لديهم في أن وجودهم ضروري وضروري جداً ..

ولكن كان صديقي كذلك .

وحتى آخر لحظة لم تكن لديه ريبة ..

وحين انحرفت السيارة لم يكن هناك شيء ضروري !

ليس ثمة ضرورة في ان يعود هذا التاجر او ذاك إلى متجره غداً ولكنهم يخططون على انهم خالدون .

ولم يكن صديقي خالداً ...

* * *

(٦)

كنت منهلك القوى أسير بتخاذل ، ارفع قدمي ببطء شديد ، وأحياناً أجرها جراً على اسفلت الطريق ، وكان فكري منهكاً أيضاً بتساؤلات لم أجد عنها جواباً ، وأفكار لم استطع تحديدها ، كانت افكاري كالدائرة لا تنتهي وكالدوامة لا تستقر ، وكنت مشتتاً ضائعاً ، وكأني محاط بأمواج فتقاذفني كما تقاذف الطوفان سفين نوح ..

كنت في هدنة فكرية ، استجمع فيها قواي بعد الاعصار الذي ألم بي ظهر اليوم ..

وفجأة قابلني رجل فاتح عينيه على سعتهما ، متهدلة شفتاه يحدق إلى الامام ببلاهة مريعة ، والبلادة ظاهرة على محياه ، كان وجهه خشبة مرسوماً عليها وجه انسان بريشة فنان فاشل ، وكان يحمل بين يديه طفلاً أو طفلة ، المهم لفافة من اللحم الطري ، وكان يضم اللفافة بين ذراعيه ويرسل حوله نظرات بلهاء .

وتحاذيه امرأة ليست باقل منه بلاهة ، ولا اقل منه تخشباً ، تحمل بين ذراعيها لفافة اخرى من اللحم الطري . .

كان الاثنان منتشين بابخرة الاطعمة الرخيصة التي تناولاها ، والتي تكفي لامدادهما بقوة تمكنهما مـــن صنع لفافة او لفافتين مـــن اللحم الطري ومرا بي ..!

وبعثا في رأسي عاصفة كانت قد هدأت منذ فترة وجيزة ، إن دقـــة

احساس تجني علي ، ان ابسط الامور اصبحت تثير عندي تساؤلات لاحد لها . حتى بت احياناً اخشى ان افقد حياتي متسائلاً .. !

ورسم مرورهما علامات استفهام امامي :

ـ اسأكون مثلهما ؟ اسأحدق ببلاهة وغباء وأنا منتش بالأبخرة المتصاعدة من امعائي حاملاً لفافة من اللحم الطري .. ؟

عندئذ يفقد وجودي قيمته ومعناه ، ويتضح لي إن كنت سأفعل هذا فإني اعيش عبثاً .. حيوان يأكل ليتناسل ... ! ولكني بكل قواي وبكل ارادتي اكره هذا . وسأقضي في الوقت المناسب على أي محاولة او ضعف قد يؤدي بي إلى هذا المصير ..

كانت تتبعه ذليلة مهيضة الجناح .

وانا اريد من تصاحبني قوية شامخة الرأس .

كانت تحمل لفافة من اللحم الطري هدية إلى المجتمع بعقد شرعي وانا اريد من تصاحبني ان تحمل حياتها في مغامرة معي ، ان تحمل حريتها في وجه ركام متعفن .

انا اريد امرأة لا مطية ، قال نيتشه « لم أجد المرأة التي تكون أماً لأبنائي الا المرأة التي احبها .. ايتها الابدية كم احبك » وانا اقول « لم أجد المرأة التي تصلح رفيقة لي إلا المرأة الحرة ... كم احبك ايتها الحرية » .

لقد اثارني في ذينك المخلوقين انهما هادئان جداً ، وباردان جداً ، ووديعان أكثر مما ينبغي ... وأنا اريدها حية متوترة .. تشعرني بأني اعيش مع انسان لا لوح ، أو تمثال للطاعة والخضوع : كم احبها عندما تواجهني بقوة وعنف . .. بلا .. ان هذا يعني انها حرة .. . وانا احبك ايتها الحرية .. !

كنت اتحرك بصعوبة في زحام سوق الحريد وضجيجه، وفي رأسي تتردد فكرة أو نكتة . المهم فيها ان مؤرخاً سأل الاسكندر :

– وبعد ماذا ستفعل ؟
اجاب – سأغزو مصر .
– وبعد ؟
– اغزو آسيا .
– ثم ؟
– اعود لبلدي .
فقال المؤرخ – ولم تتعب نفسك ان كنت ستعود إلى حيث بدأت ؟

فعلاً لماذا اتعب نفسي ان كنت سأعود من حيث بدأت ، البداية معروفة لدي انها ما قد كان دائماً ، والنهاية ما لم يكن بعد ! ان النهاية ظلام في ظلام ، ووضوح البداية بكونها ما قد كان ، سبب في التشبث بها ، والعودة اليها ، لأن بعض الناس يخشى ان يقامر بعيداً عن الواحة الآهلة في صحراء مجهولة .. فهل اخشى المقامرة ؟

كان شخص يقول لي ان غيري قد فعل ما فعلته . وقال ما قلته ثم عاد إلى حظيرة العرف السائد ، وبالمعنى الأصح عاد إلى الواحة التي خرج منها الاستكشاف المجهول . وعاد ساجداً يقبل ارضها ، بل اشد تمسكاً بما كان قد تمرد عليه من القابعين فيه ...

لقد ادرك كم تكون الحياة صعبة بدون قيم . ونظم ، وبدون اصنام تحمل عنه اوزاره !

انا اعرف السبب في هذا ، ان المغامرة شر قاس وفظيع ، ومؤلم ، وإنها تجعلني اعيش حياتي في لحظة فاصلة ، والادهى من هذا ان لا أحد يفهمني ، ولن يحاول احد ان يفهمني .. فعلى الذرى العالية يعاني المكتشفون صقيع الوحدة ..

وهؤلاء المكتشفون انواع ؛ بعضهم يملك القوة لكي يستمر ، وبعضهم تجذبه انوار الواحة الخلابة ، فيركن اليها .. ويعود القهقري .. ويتخذ منه

نذيراً كي لا يفعل احد ما فعله ..!

لكن الذين عادوا لم يكن ذلك لأيمان منهم ، ولا اقتناعاً ، وإنما ايثاراً للراحة ايثاراً للبداية المعروفة ، ايثاراً للسير في الطريق المسلوكة من قبل التي مهدتها اقدام الجموع من كثرة السير عليها .. . يؤثرون ذلك على الطريق البكر المليء بالصخور المدببة ،والأشواك التي تدمي الأقدام ، وصقيع الوحدة المؤلم ...

لقد عادوا يلتمسون الدفء بين الجموع التي انفاسها تجعل الهواء يحترق عفونة ولهباً ، وأنا أحب الهواء البكر ، والطريق البكر ، والرفيق البكر ، والأفكار البكر احب العيش في الذرى ، ان الكثبان توجد في المنخفضات والأودية ، أما القمم العالية فلا توجد عليها إلا ذرات الرمال ، وشتان ما بين الذرى والوديان ... ؟ !

هل سأوقر الدعة والسكون وسط الجموع كشاة شعرت بالبرد فلاذت بالقطيع عن المعاناة والتوتر في طريق اختياري ؟ !

هل سأوتر اغماض عيني والاستسلام لتيار الجموع عن التيقظ طول ليلي مخافة وحوش طريق اختياري ! ؟

ينبغي ان اجيب بكل صراحة ، وإذا حدث ان عدت فإنه ستكون لدي الشجاعة الكافية لكي اعترف بأني لم أعد قانعاً .. بل لأني جبان ... جبان ... جبان . ان ما اريده فقط رفيق حر يملك الشجاعة لكي يقول : لا .. والقدرة لكي يعمل ما يريد .. انه حر .. وأنا احبك ايتها الحرية .. !

هل تنفع وردة ؟

وشق ذلك الخاطر فكري بسرعة خاطفة ! هل تصلح رفيقة ... ؟ ! واسدلت الستار دون ان اجيب.. هربت من الجواب .. لأني لا أعرف بعد.

وابتسمت ، وعندئذ تزكرت تعليق شخص على ابتسامتي يوماً ما :

– سعيد ... يضحك ..

ولست أدري كيف افهمه معنى ضحكي ؛ ، كيف اشعره بالمرارة التي تقطر من شفتي ؟ انه لا يعرف عن الضحك الا ان شفاهاً تفتح ، واسناناً تبرز ، وصوتاً يخرج من البلعوم مباشرة دون تدخل اللسان، وهذا ما يفهمه الناس عن الضحك ، واعطوا لهذه الصورة معنى

– الضحك يعني ان الانسان سعيد

ولكنهم نسوا ان السعيد احياناً يبكي ، وان التعس احياناً تتفجر تعاسته في ابتسامته ، كثيراً ما تختلط السعادة بالشقاء ، ونعجز عن ان نفسر هـــل نبتسم لأننا سعداء ، أم لأننا اشقياء ، ويومها على قبر صديقي كنت أبكي ضاحكاً ان ذوي الحساسية ليس لديهم ذلك الحد الفاصل بين السعادة والشقاء انهم يتأرجحون بين الامرين كبندول الساعة .

كان مبعث ابتسامتي انه يطالبني بما اهرب منه، بما اكرهه لأني لا اريد ان أكون رقماً في سجل المواليد ، ودوائر الاحصاء ، ولا مجرد نكرة تعيش تموت دون ان تحدث اثراً .. لذا سأبتدع حياتي وفق شروطي ..

وان التهمة المعتادة التي يقابل بها كل فكر حر هي : الالحاد ! وكل قضية لكي يبرهن على صحتها تربط بالله، وإذا كنت لم أعرف الله بعد فإن اساس قضاياهم يتهاوى أمامي ..

الله ..

ان الذين يدعون معرفته لا يستطيعون الإجابة ، صحيح انا لا أنكر أنهم عرفوه معرفة يعجز التعبير عنها ، ولكن ما اعنيه انا ان معرفتهم هم لا تكفي لكي اعرفه أنا .. أنا لا أقتنع بالنيابة ، لأني أريد ان اصل بنفسي إلى ما وصلوا اليه .. فلماذا يمنعونني ؟ ! ولماذا يقيمون العراقيل في وجهي ؟ ان هذا يثير لدي شكاً بأنهم يشعرون أنهم مخطئون ، ويخشون ان اكتشف هذا الخطأ .. ان كانوا على حق فسأصل اليه ، لانهم ليسوا افضل مني .. وان كانوا على باطل ... وهنا الطامة .. !

ان مدعي الايمان يقعون في دور فظيع . لو قالوا : نؤمن لأسباب لا تستطيع الكلمات حملها لصدقتهم ، فهم احرار في دنياهم ، كما انا حر في دنياي ، ولكن ان يقولوا وجدنا اباءنا يعتقدون وها نحن نعتقد مثلهم ... ! ؟ هذا ما يثيرني. ويجعلني اصب لعناتي عليهم هذا الحاد مقنع ،لقد كان مشركو مكة يرددون نفس الجملة : « هذا ما وجدنا عليه اباءنا وها نحن على اثارهم مقتفون » ولكن تبين لهم بعد ذلك انهم على خطأ ، وخطأ كبير .. يجعلنا نتساءل من كشف لهم ذلك .

محمد .. وعظمة محمد .. وقوة محمد .. لقد استطاع هذا الفرد الواحد قليل الإمكانيات عديم الأنصار بادىء الأمر – ان يقلب مجتمعاً عذبه كثيراً ، وطارده كثيراً واحتقره كثيراً ، ولكنه في النهاية انتصر ..

لو استسلم محمد لحكم الاغلبية ! « لو قال مثلما قال غيره » هذا ما وجدنا عليه اباءنا وها نحن على آثارهم مقتفون » .. لو كان هذا لما كان هناك ما يسمى اسلاماً ..

ان هذا ما يخشاه الضائعون في زمام الأغلبية ، ان يظهر فرد يقلب اراءهم وأفكارهم ، ويصحح معتقداتهم ، ويوجه انوفهم كي يشموا التعفن الساري في الجثث المحنطة التي تسودهم ، وان يكشف لهم عن موت قريب ينتظر سلبية الاغلبية وينتظرهم .. ولكن ينبغي ان أنص على ان المبدع دائماً شاذ ، محمد شاذ ، عيسى ولد شاذاً ، ان الشذوذ عن العام وعن السائد هو طريق الابداع ..

ولكن لهذا الابداع ثمناً قاسياً وفظيعاً ، لقد عذب محمد ، وصلب المسيح وهذا هو ثمن الابداع .. ان تعيش في غربة .

وانا لا اتوقع ان تقابل ارائي بالتصفيق ،بل ان حدث هذا فسأبصق على نفسي ، ان الابداع هو ما لا يصدق ... الابداع غربتي ...

ان الاغلبية تحكم بأهوائها ، وببطونها . والديمقراطية اسخف نظام عرفه البشر لأنها تتوسل اراء رجل الشارع الذي همه الوحيد ان يملأ بطنه ، وان يحصل

على ما يكيفه من السجاير والشاي وان يجد حظيرة يسكنها وزوجة يأوي اليها ، وان تعد له طقوس يقدسها ثم بعد ذلك فليذهب العالم إلى الجحيم !

الجحيم .. !

لقد مات صديقي .

وانا لم أمت

هل لكوني لم أمت معنى ؟ !

انا في طريقي إلى البيت، سأتعشى ،ثم آخذ كتاباً وأذاكر ، ثم انجـــح. الامور تسير عملياً بدون معنى .. اليأ لا شيء ذو قيمة !

كلا سأذهب إلى احد البارات، واقذف ببعض زجاجات البيره في جوفي وسيصبح الصباح ، وسأهز كتفي لجميع الاشياء : لا شيء يستحق ان نفكر فيه، وان نشغل به انفسنا .. لا آمال .. لاحب.. لا غايات . أمور زائفة نصنعها لتحدد مسيرتنا على الطريق في صحراء قاحلة ثم ازدحمت الصحراء بالنصب فاصابنا بينها التيه ..

وكان هذا الاكتشاف يجعلني اشعر بنوع من الراحة ، نوع من الـــلا مبالاة لا شيء ذو قيمة ..

ومات صديقي ..

قتله وهم ، ولكنه اكتشف بشكل ملتوٍ ان القيمة التي اعطاها لحياته زائفة لقد فقد حياته في نفس اليوم الذي فقد فيه امله ، وتحطم حبه وتحطمت ثقته في العالم على صخرة الزيف ، ولكنه عاش بعد ذلك جسداً يتنقل فقط .

لقد فقدت حياته قيمتها التي وُهبت لها ، احترق عالمه « الكرتوني » ولم يكن من الشجاعة لكي يواجه ذلك ويصنع عالمه الجديد ..

وربما اكتشف ان كل الطرق تؤدي إلى نهاية واحدة .. فأختصر الطريق كلا لن اخدع ! إذا جعت طلبت الطعام ، وإذا عطشت طلبت الماء وإذا

كان الجو بارداً طلبت الدفء... المسألة في غاية البساطة .. ان فقدت كل شيء فثمة شيء يلازمني ، انني سأصنع عالمي وحياتي أواجه هذا او اهرب منه وأدير وجهي للمعضلة ، ولكن التفكير في ذلك يرهقني ،غير انه يجعلني لا أسجد للحيوات المجانية الآتية من خارجي !

كنت احاذي جامع « النخلة » من شارع ابن عمران ، وكان اطفال يلعبون أمامه ، ونهرهم رجل بشدة ، ربما يردد نفس الكلام الذي سمعه عندما كان صغيراً ، أن الانسان من هذا النوع يكبر لكي يردد ما قيل له في الصغر ، صرخ الرجل في الاطفال « بلاش لعب – تعالوا صلوا » .

وأوشكت ان اواجهه محتداً: ان لعبهم صلاتهم! ولكن الى له ان يفهم؟

وجالت من ذهني الخواطر : بالأمر . بالقوة ، أما كان يجدر به ان يقول لهم لم يصلون ؟ ولكن اراهن على انه نفسه لا يعرف !

افعل .. لا تفعل ، نفذ في الحالين فقط ، ولا تسأل ، نفس الكلام الذي كان يردده فقيه الجامع الذي حفظت فيه القرآن ، ولكن لم أفهمه ، وكلما قابلتني اية رأيت ان افهم معناها كان مصيري ان اوضع في الفلقة حتى تدمى قدماي ..

ومررت بأطفال ، كان بعضهم يسخر من طفل صغير كان يبتسم بخجل ، ويروون ان مدرساً سأله : من خلق السموات والأرض ؟

فخاف الطفل ، ورد بدهشة وسداجة : لست انا والله !

فصفعه المدرس وهو يردد : الله الله .. خالق السموات والأرض .

وبالتأكيد فإن الكلمات ارتسمت في مخ الطفل كما ارتسمت اصابع يد المدرس على صفحة وجهه ، وسيردد هذه الكلمات إذا سئل ، ولكنه لا يفهمها .. !

وكانت طفلة تمانع في أخذ قرش من رجل قال لها : خذي

قالت الطفلة : امي اوصتني الا اخذ من أحد شيئاً !

ما أثقلها كلمة على أذني ، وانفجرت في براكين الغضب . وزلزلت قوائمي ثورة عاصفة جامحة : امي قالت لا

ما أفظعها من كلمة : أمي قالت لا .. كم جيل ضاع بسبب هذه الكلمة وأمثالها ، أمي قالت لا .. أي قال لا .. ولم يسأل هؤلاء أنفسهم : وهم ماذا يقولون ؟ !

من منا المسكين ؟ من منا في حاجة للرثاء ؟ انا أم هم ؟ ...

انهم جحيمي ، انهم جلادي ، انهم أولاً وأخيراً مساكين لأنهم ارادوا غير ذات الشوكة ارادوا راحة كراحة الحيوان في الحظيرة ، وان يمضغوا الافكار البالية مع التبن ، ففازوا براحة هي الموت بعينه انهم « موتى بلا قبور » موتى يدبون ! قوالب مصنوعة وفقاً لمواصفات معينة ، سابقة تُصنع لهم حياةً لكى يحيوها ، أما انا فسأصنع حياتي مشعاً مثل الشمس بأنـــوار فضيلتي ..

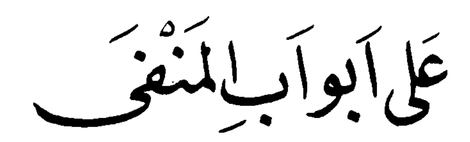
كنت استمع إلى نصائح ذلك العجوز ، وابتسم ، لم أقاطعه لم أحرمه من اداء شيء يلتذ به ! ، دع الريح تحتمل اقواله ونصائحه وعما قريب ستحمله أيضاً كانت جيوبه ملأى بالنصائح ،وكان كريماً جداً لم يبخل بأية نصيحة ، ولكن كان وجوده نصيحة الا افعل ما يفعله والا اصدق ما يقوله :

وصلت البيت ، وأدرت المفتاح في الباب ، وصفقت الباب خلفي والريح قد بدأت تهب خفيفة ..

ماذا بي والليل يطول وانا مسهد ؛ انا اتألم لحال هؤلاء التعساء ، انـــا شمعة تحرق وتحترق ، ولكنها تضيء وسط الحلكة ..

انا احترق ، انا اعاني لاني حي ، وهم لا يحترقون ولا يعانون فهم أموات يملؤون الهواء رائحة نتنة عفنة تمنعني من التنفس، يسدون على مسالك الريح التي تحمل نسائم الربيع على ذرى الابداع ...

* * *


عَلى أبوابِ المَنْفى



(٧)

ماذا حدث ؟

فتحت وردة باب الشرفة ، وهبت نسمة خفيفة باردة فراقصت شعرها المسدل ، وجعلت فستان نومها الشفاف يلتصق بجسدهـــا

— ماذا حدث لي ؟ عيناي تتمردان على النوم ، أرغب أن أظل مستيقظة ، وان اتحرك ، الدنيا التي حولي لا تسعني ... ، أصبحت ضيقة ، اشعر فيها بالاختناق ..

واستندت على حافة الشرفة ، كان شارع عمرو بن العاص يقع على يمينها مقفراً إلا من بضعة اضواء مبعثرة تقاوم زحف الظلام متوحدة محاصرة ، وعلى يسارها كانت المباني تنتصب شاهقة مظلمة .. مقفلة النوافذ ..

واخضعت بيدها خصلة من الشعر تمردت خلف نسمة من الهواء ثم تنهدت بعمق ، وأخذت نفساً قوياً من الهواء كأنها تهم ان تفطس في الماء واجالت عينيها فيما حولها ، ورفعت معصمها إلى قرب عينيها تحدق في ساعة يدها ، وبعد ان تبينت وضع العقارب

— الثانية .. !

لقد قضيت في الفراش ساعات اعالج النوم ، تحايلت بكل وسيلة ، اغمضت عيني ، اطفأت النور ، ولكن ها أنا افشل في جميع محاولاتي ، ظللت اتقلب اربع ساعات

ورنت إلى فراشها ، كان مسرحاً لمعركة جرت للاستحواذ على النوم ، وضمت فستان النوم حول صدرها ، وامسكت بفتحة الصدر الواسعة ، كانت تتشاغل لكي لا تفكر ، كانت نظراتها حائرة ، قلقة لا تثبت على شيء كانت تهرب من أفكار غامضة بدأت تطرق رأسها الصغير المتوج بشعر أسود فاحم.

* * *

وضعت كتاباً أمامي ، واستندت بمرفقي على المنضدة ، وأخذت انقل عيني بين السطور ثم شردت عيناي تحدق في سقف الغرفة ، وظللت على هذا المنوال اركز نظري على نهاية خيط المصباح المتدلي من السقف ثم لم أر شيئاً ، زحف ستار غامض فغطى كل شيء ..

كانت فكرة تساورني ، ولكني ارفض حتى مجرد الأعتراف بأني أفكر فيها ، كانت تبدو لي غريبة متطفلة على عالمي ، وصممت ان استيقظ والتقطت ساعة يدي من على المنضدة ونهضت وانا اتبين الوقت فاصطدمت بكرسي احدث صوتاً اخذني على حين غرة فأرعبني .. وشعرت برجفة هائـــلة في أوصالي ،واطفأت نور حجرة مكتبي الخاصة ثم استدرت لأتوجه إلى حجرة نومي ..

ولكني اكتشفت اني غير راغب في النوم — فتسمرت لحظات أقرر ثم قفلت راجعاً إلى الباب الخارجي ، وفتحته ، واقفلته خلفي متجهاً إلى البحر الذي كان موجه يتحرك بصوت كئيب

* * *

كانت ابتسامة ترف على شفتيه ، كانت الحوريات بجانبه ، وكان يستلقي على سرير معلق بين شجرتي فاكهة ، كان يكفي أن يشير بأصبعه إلى الفاكهة لكي تأتيه »، وكانت الاقداح معلقة في الهواء بجانبه مغبأة بخمر الجنة ، كان يقبل هذه ويداعب تلك ، ويغوص بيده في شعر الأخرى ..

وكان سعيداً ، وسعيداً .. لقد صلى المغرب والعشاء ، واتجه إلى سريره صافي النفس ، لا شيء يشغله أو يقلق راحته ، انه مسلّم امره إلى الله يفعل به ما يشاء ..

هذه الدنيا مجرد استراحة في الطريق إلى الجنة، فلماذا يشغل نفسه بمشاكلها ومآسيها ! ؟

كلا ليست مآسي ، ولكنها ثمن استحقاق الجنة ، ثمن الدخول إلى الجنة فلو تركت بدون ثمن لدخلها كل من هب ودب ، ولما كان هناك فرق .

كان ابراهيم قانعاً من الدنيا بسلبية واضحة ، إفجأة وهو في غيبوبة السعادة سمع صراخاً ..

كان الصوت ليس غريباً عليه، انه يعرفه ، ونهض من سريره ، وكانت احدى الحوريات قد سارعت لتمنعه من النهوض ، وهس مستكيناً تحت يديها الدقيقتين : .. من يصرخ ؟

قالت الحورية : لا تهتم

: ولكني اعرف هذا الصوت

: لم يعد صوتاً احداً .. مذنب يتعذب

: هو .. ؟ !

ونظرت اليه الحورية وكأنها فهمت قصده ، ثم اردفت : هو ..

وانزل رجليه من السرير المعلق ، وقاوم محاولات الحورية لابقائه في سريره ، وقفز .. فإذا به يهوي في نهر العسل المصفى ، وانقطع الصراخ وشعر بأنه يوشك على الاختناق ..

وعندئذ استيقظ ابراهيم ، وكان فراشه قذراً .

* * *

— هنا شيء جديد !

ودقت وردة بيدها على صدرها .

— هنا يتكون شيء جديد ، شيء لا أعرفه ، ولكني اشعر بأنه يحدث تغييراً في حياتي كلها ، لم اسمع من قبل دقاتك ايها القلب ، أين كنت تختفي ، لقد استيقظت فجأة فأصابني الأرق ، وها أنت تبعث في عروقي دماء حارة ، اشعر بحرارتها ... ما نهاية كل هذا ؟ .. ما نهاية دقاتك الضيقة التي تكاد تثقب صدري .. ايها القلب ؟ .. ولمن هذه الدقات تنادي ؟ ... ماذا يعني هذا كله ! الارق ، القلق الشعور الغامض الذي ينتابني ؟ !

أنا لا أفهم !

غير ان ثمة اموراً مهمة انا مقبلة عليها ، تغيرات جذرية ، لقد حلمت انني في نهاية الطريق اعتليت مرتفعاً من الأرض واخذت انظر إلى الطريق الملتوية خلفي .. ان هذا الحلم يعني انني في لحظة فاصلة لاختيار الطريق !

* * *

كنت انقل الخطى على شاطىء البحر كانت الامواج تكتسح الشاطىء ثم تنحسر ، وكنت اسير على الرمال التي سوتها الامواج فتترك قدماي علامات لا تلبث حتى تمتد نحوها موجة فتمحوها ، كنت عاقداً يدي على صدري ، وسيجارة بين شفتي تحترق ، ولم أكن افكر في شيء ما بالتحديد .

كنت قلقاً ومؤرقاً ، وكان السير على الشاطىء يسليني نوعاً ويريح اعصابي المشدودة ..

* * *

— انه لطيف !

قلت هذا لفايزة عندما سألتني عن رأيي فيه ، اعرفه منذ سنوات وتحدثت معه مرات ، ولكن اليوم .. كلا الامس فلقد اصبح اليوم امساً ، ولكن كان

في عيني فائزة شيئاً غريباً .. كلاماً .. نظرت إلي وكانت عيناها تقولان شيئاً احجمت شفتاها عن النطق به ... وابتسمت .. ! ترى ما معنى هذا ؟ انه لطيف ومهذب ، وروحه المرهفة ، وشعرره المتسامي ، وقلقه ونظراته التائهة ، ولكن افكاره ! ؟ يا للهول ! انها فظيعة ، لقد قالوا ذلك عنه ، وصدقته بنفسي ، لا أدري كيف يعيش ذلك الجسم النحيل مع تلك الافكار المهولة ، وذلك المظهر البارد مع ذلك الغليان الذي تكشف عنه أول كلمة يعزفها لسانه ، .. انه غريب .. شاذ ، لم أصادف مثله أبداً ، وربما لن اصادف .. غريب ، أن ذلك الجسر ستحطمه تلك الأفكار المروعة ..

ولكني احترمه واقدره فهو يستحق ذلك و ....

وامتنعت عندئذ الافكار عن الورود إلى ذهن وردة ، وانقطع تتابعها وامسكت عند آخر تلك الكلمات « احترمه واقدره و ... » وصمتت صمتاً تاماً ..

* * *

كنت هادئاً هدوءاً غريباً ، واشعر بنوع من الانشراح ، واحساس يهب في نفسي فيبعث في نشوة غريبة ، احساس لطيف يدغدغ مشاعري .

لم اشعر بهذا من قبل ، وخاصة بعد تلك العاصفة التي اضطرتني الى الخروج من المحاضرة ..

واستلقيت على الرمال رغم رطوبتها ، فقد كانت الحرارة تشع في اعماقي وارقب البحر وهو يتحرك ، ووضعت علبة السجائر بجانبي ، واستللت منها سيجارة اشعلتها من عقب السيجارة التي في يدي ، ثم اغمضت عيني ، ووضعت يدي على وجهي ، ورحت افكر ، وبين الفينة والأخرى كنت انفث الدخان بقوة من فتحتي انفي ، كانت الرمال رخوة ندية ، وكانت يدي بهدوء ترسم خطوطاً في الرمال لا مفهومة ..

— هدوء .. هدوء ما بعد العاصفة ، لقد مرت بي تلك السويعات ولا أدري كيف مرت ، كانت العاصفة في قمة عنفوانها ، وكانت زمجرتها تتجاوب في اعماقي .. هكذا .. منذ متى تنتابني هذه الحالة ؟ .. انا لا اذكر متى شعرت لأول مرة بغربة وبلا انتماء ولكن اذكر انه بعد ان تجتاحني تلك الغربة وذلك الشعور التعس يعود إلي هدوئي ، ولكنه هدوء ما بعد العاصفة حيث الأشجار مقتلعة من جذورها ، وساكنة في مكانها — ملقاة ، والنباتات قد اجتثت والاشياء قد تحطمت ، والغبار يملأ الأرجاء ، اذ لمح الدمار الذي الحقته بي العاصفة ..

ونهضت متثاقلاً . فاستويت جالساً ، وعقدت يدي حول ركبتي وحدقت أمامي .

كانت باخرة ترسل اضواء ها على بعد في عرض البحر ، وكانت الامواج تتلاحق على الشاطىء . وانتبهت فجأة ، وزممت شفتي ، وركزت نظري ، ثم اختفت السفينة ، واختفى الموج .

— لقد حادثت فتاتين اليوم .. ولا أدري ما قلته ، كنت في نهاية الشوط ، وكانت العاصفة آخذة في الهدوء ، ترى ماذا قلت ، وفيما كان حديثنا ؟

واخذت ترتسم امامي صورة وردة ، كانت ابتسامة تشع من وجهها كله وقد زمت شفتيها ، وقطبت حاجبيها .. وابتسمت لنفسي ، وحينئذ شعرت بعقب السيجار يحرق أصبعي ، فألقيت به ونهضت متثاقلاً ..

* * *

ونهض ابراهيم متكاسلاً ، وتثاءب : ينبغي ان استحم لكي اصلي الفجر حاضراً ، ذلك الحلم لوثني ، قذارة .. الجسم قذارة ينبغي تحملها لكي نطرحها نهائياً ..

كان يشعر بانفصال بين وجودين ، وكان يشمئز من وجود جسده ، لقد

اشعره به بعمق ذلك الحلم ، وتلك الحورية ، وعندئذ تبينت له قذارة ذلك الجانب . .

— ينبغي ان استحم ..

كان بردد هذه الكلمات ، ويحاول ان يفتح عينيه اللتين ما زال النوم يداعبهما وقدماه تبحثان عن خف ينتعله ، وسار يتحسس الحائط حتى اصطدمت يده بزر النور ، فضغط عليه ، وغمر الحجرة نور الكهرباء ، ثم فتح باب الحجرة وكان « وسط الحوش » ندياً ورطباً ، تهب فيه نسمة باردة كتلك التي تهب قبيل مطلع الصبح ، باردة لكنها منعشة ، وتريث قليلاً ما بين ضفتي الباب وكرر : ينبغي ان استحم ! لكي اصلي .. اللعنة على هذا الجسد .

كان يحاول اقناع نفسه ، يعمل على خلق قوة دافعة له تفقده الاحساس بالبرد ، كان يحاول ايجاد مبرر قوي يسند اليه عمله . يبعث فيه دفء الاعتقاد .

واتجه إلى الحمام ، وفتح صنبور المياه الدافئة ، فلم تتنزل منه قطرة واحدة فشعر بخيبة أمل سرعان ما قاومها :

— عظيم .. عظيم ..سأستحم بالماء البارد ، رغم كل الظروف سوف استحم ، انا لا أخدع ، ايها الشيطان القذر اتريد ان لا اصلي .. ؟ !

ووقف تحت الدش ، واسنانه تصطك ، وجسده يرتعش وبصوت مقرور كان يردد: ينبغي ان استحم .. ينبغي ان استحم لكي اتخلص من قذارة هذا الجسد ....

* * *

كانت وردة جالسة على حافة السرير ترقب الجدار المقابل ، ولفحتها ريح باردة آتية من باب الشرفة المشرع ، فنهضت واقفلته ثم عادت ، وعلى ضوء خفيف منبعث من آنية على شكل سمكة جلست في السرير شاردة ،

كانت تشعر ان ثمة امراً جديداً يساورها ، ولكن ما هو ؟ ! هذا ما كانت تعجز عن الاجابة عليه . وكان ذلك العجز يقلقها ويؤرقها ..

وانبعث الماضي فجأة مجسماً امامها ؛ وهي طفلة تحبو ، ثم وهي ترتدي المريلة ذاهبة إلى الروضة ، وتراءى لها ابوها ، وامها ، وأخوتها ، واخواتها كانت الصور تمر امامها ، وكأن الماضي قد ارتد إلى الحياة ، وتسلسلت الصور ثم انقطعت فجأة وشعرت من ذلك برهبة ..

وتراءت بقية الصور سوداء لا أثر فيها لشيء على الاطلاق ، كان ذلك المستقبل .

* * *

انظر إلى ذلك الحطام من الذكريات ، تلك القائمة من الاحداث ، انت تملكها ، ولكن كجثة هامدة ، لقد انفصل عنك ماضيك ، لم تعد له أهمية لقد كان ومحال ان لا يكون قد كان : انتهى الأمر ..

ولكن لم تفكر في هذا الآن ، لقد كنت تسير وانت متيقن من ان سلسلة حياتك متصلة ، وها انت تستدير الآن ، فإذا ماضيك قد انفصل ، وإذا بك لا تملك الا ذكريات ، ومستقبلاً مجهولاً .. ذكريات .. حطام ..

انظر إلى هؤلاء الذين يقابلونك بعيون نصف مغمضة ، وشفاه متهدلة ، وأقدام تسير وكأنها تتراجع ، انظر اليهم جيداً ، حدّق فيهم جيداً ، يوماً ما ستكون مثلهم ، هكذا تسير بعيون نصف مغمضة ، وشفاه متهدلة ، واقدام تتراجع متراخية في سيرها ، تسير في غيبوبة ، نصف نائم إلى حيث يستهلكك السعي وراء اعالة خمس أو ست مشاكل خلقتها لتستنفد قواك ... اذن انظر جيداً ..لا زلت في مأمن.. لم تدخل الحياة بمعناها الحقيقي بعد وفي يوم دخولك تعد لك اجراءات التقاعد ..

اليس هذا العالم غريباً ؟ ! .. غير مفهوم ؟ !

* * *

— يا رب اغفر للضالين ، يا رب أثب المهتدين .

وسعل ابراهيم بشدة وهو يردد الدعاء في ختام الصلاة ، ويرفع يديه في تضرع ، واستكانة ، وتذكر ، وهز رأسه مرات متتالية ، ثم رفع يديه في يأس ، ونوع من الخيبة : اللهم هده فإنه في حاجة إلى رحمتك ...

* * *

(٨)

– انت في حاجة للإيمان !

– ربما .. !

وصمتت وردة ، وكانت ترقبني بطرف خفي، وهرشت رأس بيدي وقلت .

– ولكني لا أفهم .

– آمن لكي تفهم .

– وبم أؤمن ؟

– تؤمن ! بالله .. بخير العالم .. بجمال الحياة ، بأمكانية السعادة ثمة اشياء نحتاج للإيمان بها .. صدقني ولو لم تكن حقيقية فليرحمنا الله في عالم لا يوجد فيه إله ..

نحن محتاجون إلى الله !

– انتم !

– وانت ايضاً ؟ !

– لست أدري .

– ولكن ما لحياة بدون هذه الزهور التي يطرحها الايمان عليها ؟ ! تلك السعادة الغامرة التي تأخذنا ونحن في مواجهة الله سجوداً .

– أؤمن تكن سعيداً ..

كيف اصور لك راحة البال ، وهدوء النفس ، واتساع الصدر لكي

يشمل العالم كله ويغفر لجميع المسيئين .. الإيمان سعادة !

— ....

— هناك الكثير من الشرور ، هذا صحيح .. ولكن .

— من يسمح بالشر مرة قد يسمح به دائماً .. لا ضمان !

— انت حساس جداً .

— هذه مأساتي .

— وقلق .

— لأني مسؤول عن كل شيء ، حتى عن سلبيتي ، لا شيء ينقذني من حريتي .

وصمتت فترة ، ثم أجالت بصرها فيما حولها وتساءلت .

— ترى أين فايزة .. كم أكره ان اسير نوحدي .

— ارافقك ؟ !

وشعرت بأني اخطأت وباني يجب ان اصحح قولي .

— إذا لم يكن هناك مانع !

وظهر عليها انها لم تنتبه لما دار في ذهني ، فردت ببساطة ، ودهشة :

— كلا .. وما المانع ؟ !

وغادرنا الكلية ، ارفض ان اصدق ، كنت انظر اليها أكثر من مرة لأتبين وجودها وتساءلت : أصحيح اننا نسير جنباً إلى جنب قاطعين شارع الاستقلال ، شيء لا يصدق ، شيء غير معقول ..

وهمست : — مش معقول ..

والتفتت إلى ، وقد قطبت حاجبيها ، وزمت شفتيها باصرار ، هكذا إذا اثارها شيء ما ، ان ذلك علامة مميزة .. تقطيب الحاجبين ، وزم الشفتين..

واجبت مستدركاً : — لا شيء .

وابتسمت قائلة — خليك صريح .

– الحقيقة !

– ايوه .

– لست مصدقاً اننا نسير معاً في شارع عام والناس يرقبوننا

– فعلاً .. معك حق .. ولكن لا تهتم .

وترامت إلى اذني كلمات القى بها احد الناس ، وابتسمت ، وانا أنظر اليها ، أود لو احتضنها ، وان احفظها من العيون ..

قلت – سمعت ؟

قالت – دعهم .. لا تهتم .

وصمتنا لحظة ، ثم قطعت الصمت قائلاً .

– اتعرفين انك قوية الشخصية .. ولكنك غريبة ! !

ورنت إلى قائلة : مثلك ..

وابتسمت ثم استطردت : لست ادري ما السيء في ان نسير معاً ،وان نتحادث أليس هذا افضل من التخفي ؟ انه لمجتمع قذر .

– مليء بالقذارة ، ينبغي ان ينظف ، لو شاهدت في شوارع لندن يتم التعارف ببساطة تامة ، ولا يكون في ذلك اي احراج ، ولا احد يهتم بالآخر ، يبدأ كل شيء « بهالو » وينتهي « بجودباي » كل شيء بسيط ، وكنت ارقب واتحسر ، وأقول بنفسي : كم نحن تعساء ! ؟

– وعندنا كل شيء معقد .. روتين .

– كل شيء معقد .

– ثم تقولين لي .. آمن ، تفاءل ، أحلم بالسعادة ، وهم يقبضون على حياتنا ، ويريدون صبنا في القوالب التي خلفها لهم اجدادهم ، وضبوا هم فيها ، يجهزون لنا كل شيء بحيث يتركوننا كالدمى المزخرفة الفارغة ... حياة مجانية أكرهها بعمق ..

– وماذا بأمكاننا ان نصنع ؟

– سؤال وجيه ! ولكن لو رآك أحد من اهلك ونظرت الي بدهشة وقد أبطأت في السير :

– ويعني ؟ !

– . . . .

– المهم الثقة !

– المهم الثقة !

حسن تعلم منها ، الثقة ، الا تسمع ؟ الثقة ، ولكنك تفتقد الثقة في كل شيء ، انت لا تثق اطلاقاً لا في السماء ولا في الأرض ولا في نفسك ..

الثقة الم تفهم ؟ !

وعلقت على قولها : رائع ان نفعل ما نؤمن به !

كنا نعبر شارع الاستقلال ولنحرف نحو شارع عمرو بن العاص ،وكنا نقترب من منزلها ، اذ قالت

– المهم ان تؤمن .. وكل ما عدا ذلك فأمر بسيط

ونظرت إليها ، ولم أنبس ببنت شفة .

– صارحتي الا تؤمن ؟ !

– وأنت ؟

– مؤمنة ايماناً مطلقاً لا أستطيع تفسيره ، وكم يكون مريحاً ان تسلم كل شيء للّه ، هو المعطي وهو الآخذ، إنك عندئذ لن تتعذب بتصور مسؤولية الفشل والنجاح ..

– ولكنك قلقة !

وصمتت لحظة ، كنت اعرف ان ما تقوله هو ما تتمناه ، وليس ما هو واقع بالفعل كانت لديها شكوكها الخاصة ، ولكن ترفض ان تعترف بها وأتاني صوتها بينما سيارة تمرق بجانبا مسرعة :

– فعلاً .. أحياناً اشعر بقلق ، وبوحشة تطبق علي لا أعرف لهـا مصدراً .

وقفت : تفضل .

كان مدخل العمارة التي فيها بيتها يبدو مظلماً ، وكررت .

– تفضل ..

ونظرت اليها برهة صمت ، كان شيء في داخلي يتحرك ، وكنت ارتعش وتلعثمت ..

– شكراً .. شكراً جداً مع السلامة

– ذاهب في الرحلة غداً مع قسمك

– نعم !

– طيب مع السلامة .

واختفت في منعطفات السلالم ..

– وأخذت أنقل الخطى ورنين كلامها في رأسي ،تلك النبرة الحزينة في مقاطع كلماتها وتتكون لدي صورة مبهمة تسيطر على حواسي ، كنت واجماً ، ولكن أحس بأنني خفيف كالريشة ، وانه لا شيء يثقلني ..

وانتبهت لنفسي عنـــد الفندق البلدي ،على ان احضر حاجيات السفر ، وغداً صباحاً سنكون ننهب الأرض إلى شحات ، قورينا ...

* * *

(٩)

واضيعتاه ؟ ! اربع وعشرون سنة انقضت ، أربع وعشرون سنة أدبرت ، ولم ادر كيف انقضت ولا كيف أدبرت .. !

لقد وجدت فجأة اربعاً وعشرين سنة تفصلني عن يوم مولدي ، اربعاً وعشرين سنة لا أدري كيف عشتها .. اصبحت تواجهني ، منفصلة عني ، اصبحت ماضي الحافل ، ولكنه جامد وساكن ، يقبع في المؤخرة الحديدية للجرار الضخم الذي برز فجأة أمام سيارتنا ..

كنا ننهب الأرض مغادرين المرج إلى بنغازي عائدين من رحلة هناك ، وكان الظلام يسود ما حولنا ، وكنت التهم برتقالة في يدي ، وفجأة برزت مؤخرة الجرار الحديدية ، وعذرائيل يمتطيها ، ويعترض طريقنا ، ولا أدري كيف حدث ما حدث الا اني وجدت حافة الجرار تمزق جانب السيارة الذي كنت أجلس فيه وتحطم الباب الذي كنت استند عليه .. فجأة شقت حافة الجرار سيارتنا ومرقت كلمح البصر بجانبي ، كان يفصلني عن الموت خيط دقيق ، اذ انحرفت بسرعة فمرقت الحافة دون ان تصيبني ، ورجع عزرائيل خائباً ، وانهال علي الزجاج المتناثر ، واعاد عزرائيل الكرة ، اذ اعتلى سيارة اخرى قادمة من اتجاه معاكس والتحمت بسيارتنا في عناق قاتل وحار ..

وأخذت الدماء تنزف من السائق ومن الجالس بجواره ، وتحطمت سيارتنا بصورة شنيعة ، ومريعة ، ووقفت في جنون أضرب بـاب السيارة المحطم بقدمي حتى سقط بعيداً .. وقفزت إلى الأرض .

كان السائق ينزف دماً ، وكان وجهه مختلطاً بعضه ببعض ، ومن كل جزء فيه ينبثق الدم ، وكان الجالس بجواره قد افزعته رؤية الدم كالثور الاسباني ، واصابته نوبة من الهياج ، والهستيريا الحادة ..

في لحظة الحادث شعرت باتحاد ، بل بوحدة لا أستطيع لهـا تفسيراً ، وشعرت بخواء عميق ، وانتابني نفس الشعور الذي الم بي وانا احدق من عالٍ في وادي قورينا المريع ، او في وادي سوسة المظلم من شدة عمقه ..

لقد كانت امامي هوة من نوع آخر تثير في نفس الشعور ، تتمثل في حافة الجرار الحديدية الصلبة التي مزقت احشاء سيارتنا ، وكادت ان تمزق احشائي ايضاً ..

لقد و اجهت الموت منتصباً على حافة الجرار الذي برز ولا يفصلنا عنه إلا خطوات معدودة ، وكنا نتجه اليه لكي نعانقه بمقدمة سيارتنا العناق الابدي ..

وفي قمة اليأس ناضل السائق المقود حتى انحرف بالسيارة في سرعـة هائلة .. وعندئذ شقت حافة الجرار سيارتنا التي اصطدمت في نفس الوقت بسيارة أخرى كانت تأخذ طريقها نهباً ..

في هذه اللحظة الفاصلة التي اطبق علينا الموت فيها من الجهتين لم أفكر في شيء كان ذهني خالياً من أية فكرة ؟ !

هل انا صادق في هذا ؟

ام انني أريد ان اغطي ذلك الضعف الذي انتابني ؟ !

كلا ان فكري لم يكن خالياً تماماً ، كانت هي هناك تستولي على فكري ، وكنت اشعر برهبة ، ويأس تام : اذ لن اراها ثانية ، وان وداعي لها عند مدخل بيتهم كان آخر وداع ، وكانت هذه الفكرة تؤلمني وصرخت : خلاص !

كنت اعني كل هذه الاشياء ، كنت اعني انني فقدتها لانني سأنتهي

كما انتهى صديقي ذاك ، وأيضاً فهمت لماذا نطق بأسمها وهو يحتضر كانت له نوع من الرباط يربطه بالحياة ، وحتى عندما تبين له زيف وجوده كان ذلك الرباط يناضل لكي يحتفظ بقوته ..

كان الحادث كالكابوس المريع ، وكانت تبدو هناك في مخيلتي باسمة ..

ترى هل أحبها ؟ !

وهل اغالط نفسي حين اجيب بالنفي ! ؟

وعيت بعمق كل دقائق الحادث ، وحدقت في وجه عزرائيل بعد ان تبينت انني لم أصب ، واخرجت له لساني تشفياً .

لحظات وأصبحت السيارة كومة من الصفيح ، وقفزت من انقاضها لا أدري هل ابكي أم اضحك ، وكنت أخمن ماذا ستقول وردة لوانني مت أو حتى اصبت .

وكان جواب ذلك يعني اشياء كثيرة ومهمة بالنسبة لي .

لحظة واصبحت تلك الآلة الدقيقة التي تنهب الأرض كومة من الصفيح لا تستطيع الحراك ملطخة بالدم ، ومسقطاً عليها شعور مريع من أفراد كانوا في عداد الموتى ، كادوا ان يكونوا مثلها فجأة من آلة حية دقيقة التكوين الى كومة عظام ولحم ودم ..

كنت اعرف انني سأنتهي إلى الأبد ، وكان هذا يمدني بقوة لامبالية ولكن بذرة الضعف بدأت تتسلل من اعماقي ولم أكن ارغب ان أنتهي !

لقد تحررت من الأوهام منذ كنت طفلاً ، وتخلصت من خرافات العجائز وكنت اتسلل إلى مقبرة « اخريبيش » واحفر قبراً ، وأخرج جمجمة أقلبها بين يدي ، كنت اسمع ان ما يحدث للانسان مكتوب على جبينه ، وكنت اريد التأكد .. وتأكدت : لا شيء مكتوب .

وكنت اوشك ان اصبح جمجمة مجهولة الهوية ، غير مكتوب على جبينها شيء كتلك العظام المتحجرة في صخور شاطىء سوسة ، وكانت الفكرة

تبهجني فإني على ذلك استطيع ان افعل ما أريد ، ولكن أيضاً تلقي على كأهلي عبئاً ثقيلاً : ان اعرف ما أريده !

هل أريدها ؟ !

ينبغي ان احسم الموقف

ان ذلك الشعور الكئيب الذي سيطر علي ،تلك اللهفة إلى رؤيتها ينبغي ان تفسر ..

فلأكن شجاعاً ، ليست الشجاعة ان تتظاهر بها وتؤكدها لنفسك بل ان تعترف ولو كنت ضعيفاً بضعفك .. فإن هذا شجاعة

كنت متلهفاً على الوصول إلى بنغازي ، وكنت اشعر بنوع من الراحة عندما أفكر فيها .. !

هل أحبها ؟ !

ماذا تعني هذه الكلمة ؟ !

انها لم تكن قبل في قاموس حياتي ..

صحيح ان الخوف لم يعرف إلي طريقاً ، لم تتمكن تراجيدية الاحداث من ان تؤثر في ، لقد واجهت الموقف بشجاعة وثبات ، بل لولا حرج الموقف لأنطلقت ضاحكاً لأنني كنت امني نفسي « بعشاء » طيب في البيت ونسيت ان الاحداث لا تخضع لقانون !

عشاء طيب فقط ؟ !

اهذا ما كنت أمنيّ به نفسي ... ! ؟

لماذا أكذب فيما يخص هذا الموضوع ، لماذا اتحاشى الخوض فيه ؟

يخيل لي ان الانسان يتقن التساؤل أكثر من الاجابة ، ولكن ذلك يثبت حقيقة ما ، ليس ما أمني به نفسي عشاء طيباً بل ان اراها بعد غيبة أربعة ايام ، كان شوقي اليها يلهب وجداني ،وكاد ان يدفن معي في انقاض السيارة ، وبذلك لن تعرف ابداً ..

لم تتمكن الحافة وهي تمرق بجانبي من القاء الرعب في قلبي ، ولا الزجاج المتناثر الذي اخذت احمي وجهي بين يدي كيلا يصيبني ، ولا منظر الدم ، ولا وجه السائق الذي لا يمكن التعرف عليه بسهولة ، كانت الجروح تملأ . وجهه ، واجزاء منه تتدلى كأنها شفاه قرمزية حمراء ..

كل هذا لم يكن بكافٍ لكي يرعبني الا فكرة طافت برأس بعد دقائق من الحادث : كدت ان أنتهي !

كانت فكرة موتي ترعبني لأول مرة ، لأول مرة أشعر برعب شل حركتي ، وكان ذلك امراً غريباً ! ويحدث لأول مرة ، كنت قبل هذا الحادث إذا فكرت بأني ميت رفعت كتفي لا مبالاة : مستعداً من الآن !

لم أكن أملك شيئاً يبقيني ، كانت حياتي خاوية لا معنى لها .. وفجأة فجأة لا أملك الشجاعة كي اعترف ..

خلعت معطفي وأنا اقفز إلى الأرض واتجه إلى الخلف ، لقد سد حطام سيارتنا والسيارة الاخرى الطريق ، اما الجرار فإنه رابض في مكانه غير شاعر بشيء على الاطلاق .. كجبل من حديد .

واخذت الوح بمعطفي للسيارات الاخرى كيلا يتكرر الحادث ، ولكي نطلب معونة مركز شرطة المرج .

وبعد عشر دقائق من الحادث جاءت سيارة الاسعاف ، وكان زميلنا الرابع يصرخ بعصبية ونوبات من الهستيريا تتوالى عليه ، وكنت امسك به محاولاً تهدئته ، وكان السائق أيضاً ينوح ويبكي بدون دموع ، كان يرسم أمام عينيه اطفاله الستة ومصدر رزقه الذي تحطم ، كان منظراً مؤثراً ومفجعاً للغاية .

وكنا نركب سيارة الاسعاف في نوع من النشوة غريب ، نوع من الخفة كنت كأني ولدت اللحظة ، نوع من الفرح الاحتفالي يخالجني ، وجموع

الناس مدهوشة تقلب النظر بين حطام السيارة وبيننا ، وكنت آنذاك في وضع ذى امتياز

كان مستوصف المرج قذراً ورطباً ، وكان الممرض العجوز في حاجة إلى قبر. كان المسكين يرتعش وهو يتحسس جروح المصابين ، وكان الناس يحدقون فينا بدهشة لا يصدقون اننا خرجنا من عجينة الصفيح تلك التي كان اسمها سيارة وكانوا يعتقدون اننا محمولون على نقالات مغطاة بالدم فابصرونا نسير على ارجلنا .. ما عدا السائق ..

وكان زميل يصرخ معاتباً وحانقاً : « هذه نهاية سخريتكم من الشيخ ، كان الحق علي ان ركبت مع كفرة كاد الله ان يطوي عليهم السيارة كعابة السردين تحت عجلات « بطاح » مالكم ومال الشيخ تهزؤون به . كاد الله أن يؤاخذني بذنبكم .. ! »

وكان الناس لا يفهمون هذا الهذيان ، ولكني كنت أفهم قصده ، ربط المسكين ربطاً لا أدري كيف تم بين تعليقنا على ذلك الشيخ الذي كان يتحدث عن طريق الاذاعة وبين الحادث ، واعتقد ان الحادث نتيجة لازمة للانتقام منا وابتسمت لنفسي ، ناظراً إليه برثاء ..

وكانت الساعة الثالثة صباحاً عندما تركنا عزرائيل حانقاً بعد ان اصيب بخيبة أمل ..

ولكن الجرار ما زال واقفاً في مكانه وبدون اضاءة خلفية ، وهذا فخ طيب لموت سريع وبطولي في الوقت نفسه ، وكنا نحدق في حطام سيارتنا من وراء زجاج السيارة التي اتتنا من بنغازي ، والقينا على الحادث وعلى الجرار آخر نظرة ، واخرجت لساني لعزرائيل قائلاً

: مت بغيظك !

* * *

كنت سأنتهي ! سأحرم من كل هذا ، من الكورنيش الذي يبنى ، من السيارات المارقة على اسفلت الطريق المعبد حديثاً ، كنت سأحرم من الناس ومن سذاجتهم ، كنت سأنتهي قبل الأوان قبل ان اخذ نصيبي من حياتي ..

اذن فإن لي حياتي ، لم أكن شاعراً بهذا من قبل ، كان الامر يبدو لي لا طائل منه ، ولكني الآن ارغبه رغم كل شيء ، لقد احببت اذن حياتي ، لقد تقبلتها .. !

كان الاطفال يمرحون بدون مشكلات ، والاسواق مكتظة ، والناس يتصايحون مشغولين بمهامهم واهتمامات صغيرة وتافهة ، غير شاعرين بأني كدت انتهي ، نفس ما حدث عندما انتهى صديقي ، لم تتوقف الحياة ، ولم تغلق المتاجر ابوابها ، ولم يشعر به احد إلا اهله ، كان المعزون يغادرون « السهرية » ليجامعوا زوجاتهم . كان ذلك منهم مقاومة للموت ، وتمسكاً بالحياة ، نوع من الشماتة لكي يبرهنوا انهم احياء ، وعندما تصيبهم الرعشة الجنسية من الاعماق يشعرون بأنهم أحياء ..

ورغماً عن ذلك . فاني وانا اشاهد الناس منصرفين إلى اهتماماتهم تمنيت لأول مرة ان تكون لي مثلها ، ان احمل السلة لكي اشتري حاجيات الغذاء . ان افكر في فواتير النور والمياه ، ان يكون لي مشكلات جميلة اسعى لكي اسعدها ، لقد **خلقت المرأة لتشغل الرجل ، كي لا يفكر** ، لكي يندس بين الجموع ، لكي لا يكون حراً ، وانا عندما تمنيت ذالك كانت افكاري ترعبني كانت حياتي تزعجني .. انها لحظة ضعف سببها ... ربما التفكير في ... وردة ! ها أنا اتجول في الشوارع التي كنت سؤوماً من رؤيتها ، هنا كنت العب الكرة حافياً ، هناك كنت العب « الطقّيرة » و « والتيار » وهنا في هذا الجامع وفي تلك الحجرة الموصدة حفظت القرآن .

كان الامر فظيعاً ان تنتهي ، والافظع ان ترى انك ان انتهيت فسيكون ذلك تماماً .. ستمحى محواً كاملاً ..

وكان ذلك يضطرني ان اقرر ، لقد دنت اللحظة الفاصلة !

قيل ان بسكال قد افحم الجميع حين قال انني سأؤمن بحياة اخرى ، فإذا كان ثمة حياة أخرى فأنا لست خاسراً ، وإذا لم تكن هناك حياة فلست خاسراً أيضاً .

كان يعتقد ان الامر مجرد فكرة لا تؤدي إلى موقف في الحياة ، وانه في الحالتين سوف يسلك سلوكاً واحداً ، وكان هذا صادقاً على الذين يفصلون بين عنصرين في الانسان ، الفكر والجسد ، فسيؤمن اذن بفكره اما جسده فسيسير حسب قانونه البيلوجي ، أما أنا فلا أرى ان للانسان هذين الجانبين ، لا الفكر ، ولا الجسد ، ولا الثنائية المكونة منها ، ان الانسان وجوده .. انا وجودي !

لقد خسر اذن بسكال الدنيا حين ادعى انه لا يخسر شيئاً ، لأن الإيمان بحياة اخرى يجعله يفقد هذه الحياة ... الم يخسر ! ؟

وكدت انا أيضاً اخسر مندفعاً خلف أوهام ، ولكن ذلك الصوت الذي ايقظني من سباتي ، من أوهامي اشعرني بعمق بحياتي ...

* * *


فِي المَنْفَى



(١٠)

– الحمد لله على سلامتك !

كانت وردة تقف أمامي ، وتمد يدها مصافحة ، ومددت يدي ، وصافحتها باسماً :

– شكراً ..

– سمعت أخبار مشوشة ، كيف كان الحادث ؟!

– جرار واقف على جانب الطريق بدون اضاءة خلفية ، والدنيا ليل ، ورذاذ المطر يتساقط ، وكنا مسرعين فلم نتبينه إلاّ ونحن نهم بعناقه ، فانحرف السائق بالسيارة . وكان ثمة سيارة أخرى قادمة عكسنا فاصطدمت بالجانب الآخر من سيارتنا .

– ثلاث سيارات .

وظهرت الدهشة في عينيها العميقتين ..

– نعم ثلاث .

– كانت معجزة ان نجوتم .. لم تصب بأذى أه ؟

وابتسمت ، فابتسمت بدوري .

– وهل كنت أقف أمامك الآن لو أصبت :

– ينبغي أن نشكر الله .

– .....

– الواقع كان عندنا زوار ذاك اليوم فلم أخرج ، انما اتصلت بي فايزة بالتليفون لكنها لم تعرف ان كنت مصاباً أو لا . وأخبرتني ان

أخاها ذهب للبحث عنكم لكنكم كنتم قد غادرتم المرج إلى بنغازي .
وهنا تكلمت فايزة التي كانت صامتة :
– لقد حدثني أخي عن السيارة بشكل لا يصدق انهم خرجوا منهـا أحيـاء ..
وتوجهت بالكلام إلى فايزة
– اتصلت بها ليلة الحادث ؟!
– نعم .. ولقد جزعت جداً ..
وأحسست بنوع من الفرحة ، اذن لقد جزعت.. اذن بينما كنت أواجه الموت كان هناك قلب يخفق من أجلي .
وأردفت فايزة قائلة : – سمعت بالحادث بعد ان اتصلتم بالتليفون ... من تكلم ؟
وقلت : أنـا .
وكانت وردة صامتة ، ومرت فترة صمت ، ثم تساءلت فايزة ضاحكة ..
– خبرينا من الزوار ؟
وظلت الابتسامة على شفتيها متوجهة إلي وردة ، وشعرت بارتباك وردة وتلعثمت ثم قالت :
– أهو ضيوف :
وعادت فايزة تعلق والابتسامة الماكرة ما تزال عالقة بشفتيها، وأنا متوتر الحواس انصت .
– ضيوف والا خطاب ؟!

* * *

خطاب ؟! اذن انهارت الآمال ، انهارت الاحلام، لم يقتلني الجرار ولكن ها أنا اشهد الفشل النهائي ، ها أنا كلما منحت شيئاً سلبت أشياء .

خطاب ؟ ! معول بدأ يهدم حياتي التي لم يقوّ عليها عزرائيل .

وأمسكت عن الكلام ، وتهالكت على مقعد ، لم تكن لدي رغبة ولا قدرة على الكلام ، لقد نجوت من الحادث اذن عبثاً ، ليتني مت ، ليتني انتهيت وتلك الصورة الجميلة في عيني ، وذلك الحلم في فكري ، وذلك الاسم على شفتي ..

ليتني مت أضم آمالي إلى صدري ، ليتني مت وخيال يرف علي في احتضـــاري ..

وأخرجت علبة سجائري ، وأخذت بعصبية أدخن، ولاحظت تلك التغيرات التي طرأت عليَّ ، كنت مضطرباً ، أشبه بمجنون أبكم ..

– كنك ؛

– شي ..

قلتها باقتضاب ، كنت أرتعش، كنت أتمنى ان أخلو بنفسي ، إذ ربما أبكي ، أبكي آمالي المنهارة ، تلك التي لم ترَ بصيص النهار !

– كنك ؟

أعادت السؤال وهي تقترب مني ، وتحدق فيّ .

– كنك تغيرت بسرعة ؟ ألا تفرح انك نجوت من موت محقق ؟ !

– ليتني مت .

– « بعيد السو » ... خبرني .. كنك .. ايش زعلك ؟

ولم أرد ، كان عقب السيجارة يسقط تحت قدمي ، والسيجارة الاخرى بين شفتي المزمومتين ، وكانت تبذل محاولات يائسة لتعرف سبب ذلك التغير الذي طرأ عليّ .

وجلست بجانبي متوسلة بحنان بالغ ، وود خالص ان أقول لها سبب كدري ذلك ، ولكن لم أكن أملك سبباً واضحاً ، كنت أعتبر ذلك مجرد

حلم انقضى بعد ظهور الشمس وتركني فارغاً ...

ونهضت مستأذناً ، وكانت الفتاة الاخرى واجمة مندهشة ، ولكن وردة اعترضت طريقي باصرار وعناد، وقد اتخذ وجهها ذلك التعبير الذي أحبه .

– لا بد أن تذكر لي سبب زعلك ، لقد تغيرت فجأة ، هل بدر مني ما يسوؤك ؟

– كلا .. كلا .. لا شيء منك .

– لكني لن أرتاح ، سأشعر اني مذنبة ، ينبغي أن تقول لي ، أنا أختك ، أنا صديقتك ، ولن أرتاح حتى أعرف !

– كل شي باوانه .. والآن لا يوجد ما تودين معرفته .

– خليك صريح .

– لا أستطيع !

– يجب ان أعرف .

– .....

نظرت إليها ، وخفضت بصري ، واستدرت أخطو مغادراً ، ولاحقتني بالكلام

– سأراك بعد الظهر .

– لا أدري .

– ضروري علشان خاطري .. ضروري ..

– حسناً .

ولكني كنت أعرف انني لن آتي ، لن آتي ، لقد انتهى كل شيء ، ولقد كنت في حلم ، هل خيل لي انها تحبني ؟ ينبغي ان أضحك على نفسي ، ما هي مقومات الناس الذين يُحبون التي أملكها ؟ قلقي .. غثياني .. افلاسي من كل شيء ؟

كنت اشعر أن بيننا ألف ميل في تلك اللحظة ، ورغم ان الألف ميل تبدأ

بخطوة واحدة ، الا انني لم استطع ان أخطوها ، لقد تراجعت القهقرى مذعوراً بائساً ..

كنت قريباً منها، وهي قريبة مني ، ليس ثمة بيننا فاصل يرى ، نتنفس هواء واحداً ونستظل نفس السماء، ونعبد رباً ... كنت أراها وتراني تصلها كلماتي وأنفاسي حارة ، ونظراتي التائهة تلتقي بعينيها الناطقتين بصمت فتجد هداهـــا .

والآن ! تعود إليّ أنفاسي كالصقيع ، وكلماتي كالمطارق، ونظراتي عبثاً تبحث عن سر الصمت الذي يقاوم محاولاتي لاختراقه، ذلك الجدار السميك الشفاف الذي تصطدم به أماني فتنهار ، وأحلامي فتتبعثر وألمحها وراءه : نظرة حالمة ، ابتسامة ودودة ، قلق في الاعماق تشعه عينان رائعتان، فأشعر بأني في المنفى تحضرني صورة الجنة ، أشعر كأني ابليس المطرود من الرحمة ، فيزداد عذابي وأشعر بالمسامير تشدني إلى صليبي ..

ماذا سأهبها ؟ حياة نكدة ، أفكار معتمة «كشجرة الصنوبر المتوحدة منحازاً إلى نفسي ، ومتجهاً صوب الطبقات العليا، وقائماً لا ألقي ظلاً وليس غير الحمام الوحشي يستطيع ان يبني عشه وسط غصوني » ولم تكن أوريجن كيركجورد ، بالحمام الوحشي ، وليست وردة لذلك .

لقدم تقدم لها من بامكانه ان يوفر كل ما لا استطيع أنا توفيره، وتقدم بالطوق الحدية جداً ، وحسب قوانين المرعى.. وكنت أتوهم انني ....؟ بالامكان ان اكون كغيري ، ولكن اتضح لي انني لا أملك هذه الامكانية، وكان ذلك تجربة وجودية عشتها مريعة ، هزتني من الاعماق ، وردتني لنفسي .. لوحدتي لغربتي : اكثر توحداً.. أشد غربة .. أحد كآبة ، لقد تم الحكم بنفي مؤبد ، واخترت المنفى ، وصرت في المنفى أعانق صليبي ..

لا أملك إذن ما أهبه لها ، خمس وعشرون سنة ، وهي عشرون ، ولكن الأمر يختلف ، خمس وعشرون سنة حصيلتها افلاس ، وعشرون سنة تفتح

للربيع .. تفتح للحياة .. هل اتصور انني سأكون أباً ..؟! انني سأكون عائلاً ؟
فان كنت أحبها حقيقة فينبغي ان أتركها ، وان أنسل من حياتها كما انسل كيركجورد من حياة اوريجن ، وفرتر من حياة شارلوت ، وقد أراها من بعيد سعيدة حينئذ قد تطفو على شفتي ابتسامة لمرآها سعيدة.. باسمة واشعر بأنني أنقذت شخصاً كان سيحكم عليه بالنفي إلى عالمي الغريب .. فشل .. فشل نهائي ! ، فلتحترق أيها المسكين ، فلتمت وحدك ، لا أحد يغمض لك جفناً ، وفي الليالي الطويلة حين يلم بك الارق وكثيراً ما يلم ، حين تضيع عيناك بتوجد خلف خيال يطوف ، وحين تنفتح شفتاك للتحدث .. لا تجد إلاّ نفسك .. وليلاً طويلاً جاثماً لا ينتهي وتقلب النظر فإذا هو حسير ، لن تجدها بجانبك تسأل : لمَ أنت مؤرّق ؟!

لن تجدها حين تطوف عيناك بالغرفـــة الخالية، ستكون هناك تنحني على طفل جميل الهيئة ، وتنتظر زوجاً ليس من طينتك ..

مُت إذن بفشلك، مت باخفاقك العظيم، عانق صليبك.. لم تعد صالحاً ..!

تحبها ! وهل يكفي الحب ؟ ماذا تصنع به ، لقد ضاع الزمن الذي كان الحب فيه يصنع المعجزات وهو الآن شيك بدون رصيد ، تقدم قل لهم انك تحبها كأعظم ما يكون الحب ، أعظم من روميو وجولييت ، أعظم من جميل وبثينة ، أعظم من قيس وليلى ، أعظم من استيفن ماجدولين، وسوف ترى أحدهم يرفع التليفون ويدير رقماً لن تعرفه إلاّ وجماعة يطوقونك ويلبسونك معطفاً بالمقلوب !.

ولكنك غريب عن هذا العالم ، أنت لا تفهم قوانين المرعى الذي تطلب منه شاة ، فليس أمامك إلاّ الفشل ، لقد اخترت المنفى ..

انتحر فرتر وهو يقبل الغدارة التي لامستها يد شارلوت ، ودفن استيفن همومه في الموسيقى ، لقد انتحر فرتر حين تيقن أن وجوده أصبح عبثاً، كصديقك ألا تذكره ؟

ويحك لقد كنت منطقياً مع نفسك : لا ... لا .. لا ثم لعبت برأسك الاوهام ، ولم تعد منطقياً ، قهرت العاطفة المنطق ، واندحر العقل، لذ به ، أين هو ؟ لقد خسر المعركة من أول جولة ، بل قبل أن يدخلها، وتركلك راكعاً أمام من لا يرحم ... وهمٌ ..

سوء تفاهم ! هذا ما في الأمر ، انها لا تفهم ، وأنت لا تفهم ، هل تأتي إليك قائلة: أحبك ! هل تأتي إليك تسألك ان كنت تريدها زوجة لان خطاباً تقدموا ؟!

يا لك من مسكين ! لقد بنيت اذن عالماً من كرتون ، عالماً زائفاً ، لقد بنيت كل شيء على أحلام ، والحلم ليس ممنوعاً . فكان لك أن تحلم بكل شيء ولكن لا تطمع في أي شيء، فاقبع في منفاك ..

يا له من انكشاف مريع حين أدركت ان كل ما بنيته كان غلطاً ، وكل سخص مهدد بهذا الانكشاف .. انه قائم على غلط

ترى يا صديقي ألسنا جميعاً على غلط ؟ أليس وجودنا زائفاً ؛ لقد متَّ عبثاً يا صديقي كما حييت عبثاً، لم تكن أنت الوحيد الذي وجوده زائف فلن تعطى تلك الورقة لأي انسان شرعية الوجود ..

انه إذن فشل نهائي .. منفى وصليب !

يا للمسكين ! كن صريحاً مع نفسك ، لا تتخابث، انها لك كل شيء ، وإذا فقدتها فقدت كل شيء ، ومع ذلك لا تحرك ساكناً ، قل لها ، اعترف ! ربما لم تضع الفرصة بعد ..!

ولكن حتى إن حدث هذا لأتمـــي فماذا سأقدم لها ؟ ضياع ، مدينة ، قلق ينخر العظم ، أترضى بي !؟ وتخسر حياتها من أجلي، أأقدم لها هدية العرس صليباً ، والمنفى مسكناً ؟ ان رضيت هي فلن أرضى أنا ؟!

أعبد اذن التضحية ، قلد كيركجورد ، مع اريجن اولسن ، أو فرتر ،

ضح ولكن من يدريك ان هذا لا يوافق روحها الحرة ، القلقة ، وشعورها المرهف السامي ، ألا يمكن ان تتفقا !؟

سؤال ضائع !

انك تريد صديقة ، تريد رفيقة ، ولديها كل ما تطلبه ، وكل ما تضعه شروطاً ومع ذلك أيها الجبان ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، وتعتنق الفشل النهائي لأنك ترغب فيه ، فاشبع فشلاً ، وغص فيه إلى الأعماق ، ان كل الطرق تؤدي بك إلى المنفى ، تضعك أمام علامتين تحتهما كيركجورد بقلب دامٍ : إما ... أو ...

ترضى أو لا ترضى ، لا وسط ، حسن سأجازف وسأعرف الجواب ولكن رباه أقدر علينا أن تكون المرأة ــ أرق مخلوق ــ الوسيلة التي بها نكشف زيف وجودنا ؟!

أقدر عليّ ان أتحطم على كلمة تخرج من أرق شفاه وبأعذب الأصوات .؟!
لست أدري ؟

سوف أعرف ...

* * *

(١١)

في أعماقي تتجمع عاصفة، في أعماقي أسمع هدير بركان بدأ يشق طريقه في أعماقي ثورة طاحنة !

فجأة كما هو الحال في كل شيء يتغير ، ولا تعرف كيف ولا لماذا تغير ، فجأة زلزلت أعماقي ، وثار البركان ، وانفجرت عواصف هادرة ، فجأة كنت حطاماً تتقاذفه أمواج عاتية ، فوقي ظلمات ، وتحتي ظلمات ، وفي أعماقي نار تتلظى من فوهة بركان .

لقد هدني الألم ، حطمتني المعاناة ، فأنا بقايا ، بقايا حياة ، وبقايا أمل ضائع انهم يجردونني من كل شيء ، انهم يا سادتي جحيمي الذي أصطليه ..

وهكذا تبين لي في المعمعة لماذا ينضوي الافراد في صفوف المجتمع الرتيبة، ان الذي يخرج عن هذه الصفوف يدفع الثمن غالياً ، قاسياً ، ومضاعفاً من حياته وراحته ، والسعادة تصبح لديه مخدراً يفقده الاحساس بالحياة ، إنها عندئذ ترف بورجوازي .

الامر إذن مقايضة ، خذ راحة ، هات حرية ، ولا يمكن ان أتوقع غير هذا ، فعلى المجتمع لوحة تقول : أيها الداخل أترك حريتك خارجاً ! .. ولكني ارفض المقايضة ، فاخترت المنفى ، ان عكس ذلك حلم طوباوي« وهذا مخيف ... مخيف جداً » يا نيتشه !

وأخذت أقلب الحطام ، أنفخ في الجثة التي خلفتها ثورة العواصف والبركان لعلي أخلق منها شيئاً ، اني اعرف ان ما أصنعه بحياتي هو ما أكونه ،

ولكن هل يتركني الآخرون أصنع بحياتي ما أشاء !؟ أولئك القذرون الذين لا يفهمون يتكالبون عليّ وضدي يحالفون الشيطان ، وأقع بين أمرين أحلاهما مر : إما ان أستكين واخضع أو أتمرد ! وأنا أدرك ثمن تمردي ، فإلى جانب مشقة صنع حياة من حطام فإن الآخرين يقفون لي بالمرصاد ، ويكبدونني أعسر المشاق، أنا حر ! ولكني لست في العالم وحدي ، كان ثمة تناقض مريع ذلك الذي أعيشه ! وهنا المأساة في انني رغم هذا قد اخترت المنفى ، ورددت أنشودة نيتشه على ذرى الابداع « أيتها الوحدة .. أيتهـــا الوحدة أنت موطني » وتخليت بذلك عن كل شيء ، حتى عن وردة والآن أنا أحاول ان أنقض اختياري !؟

فلمَ لا يتركولني وشأني ؟ انها حياتي لا حياتهم ، أنا أرفض المقايضة وهم يقايضون ، والعبيد يكرهون وجود حر بينهم ، انه لعنة ، انه يذكرهم بما هم فاقدوه، يمثل أمامهم حرية يمارسون سوء الطوية كي لا يشعرون بها ، انهم في الواقع يقاومون حريتهم لا أنا .. انهم يصلبون الحرية وسيستخدمون كل شيء للوصول إلى ذلك ، ها أنا أتبين حقيقة قول صديقي « انهم يستغلون لصالحهم كل شيء ... حتى وردة ..!

كان العبيد في أمريكا يعودون إلى ساداتهم بعد أن حررتهم الحرب الاهلية ، انهم يفرون من حريتهم ، لان للحـــرية مشاقها ، ومتاعبها ، ومسؤولياتها، كان على العبد ان يوفر لنفسه كوخاً بعد ان غادر حظيرة حيوانات أسياده، وأن يعمل لكي يأكل ، ويأكل لكي يستمر في العمل ، وقارن هذ ابوضعيته الأولى : كوخ من ضمن حظيرة الحيوانات بقايا الموائد تأتيه ، وأسياده ملزمون بالتفكير به واطعامه لأنه ملكهم ولا يمكن أن يترك الثور جائعاً حتى الموت لأن ذلك خسارة ، وكان العبد شيئاً من هذا القبيل ..

لقد تعود العبيد الحياة عالة فلا يستطيعون مواجهة الحرية بعد !

كان ثمة بصيص من أمل يتسرب إلى أعماقي المظلمة ، كان مبرراً لوجودي

ولحياتي فاقدة المبرر، وكنت على ضوء هذا أعيد بناء حطام حياتي وأرسم حوله مستقبلي وفجأة تكشف الأمل وهماً ، وضاعت وردة ، وكان كل شيء غلط —.. أنا الصاحي بين السكارى ..

يا عواصف زمجري، يا براكين الغضب دمري كل شيء ، لم يعد ثمة ما أصنعه بحياتي ، وبوجودي ، لقد فقدت المبرر، وفقدت كل شيء حين تبين لي : ان أحب فذلك محال !؟

كان المحال في انني أحمل أموراً يلفظها الواقع ، كان اذن ما أحمله غلطاً .. محال .. أيها المحال ماذا دهاك ؟ أيها المحال كيف تواجهني فجأة وبدون مقدمات؟ كيف تفقدني كل شي كلمة محال هذه ؟!

ولكني كنت في وهم نسيت معه من أنا .. وتوهمت ان الحب بالامكان ، وأردت ان أجعل من هذا الوهم حقيقة ، وفجأة سقطت من الدور العاشر لأنطح الارض برأسي ، وليتحطم كل شيء على اسفلت الشارع ، ولترتسم على شفتيها كلمة محال! مغلفة بورود صناعية ، قدمت لي باقة منها وفي ثناياها يتستر المحال ، اعتذار جميل ولكن بعد فوات الأوان ، لقد عرفت ، واكتشفت الغلط .

انه لمجتمع قذر ، وأناسه أقذر منه يعقدون كل شيء ، وأنا أختنق بتلك القذارة، وفي أعماقي تترسب أحزاني وتعاستي ويأسي ، لقد أغرت القصور ماجدولين ، واستولت عليها ثياب الحرير والحلى ، فألفت كل شيء ولقد قالت وردة: لا ..

ثمة أناس وجدوا كل شيء جاهزاً ، ما عليهم إلاّ ان يفتحوا أفواههم حتى يستجاب طلبهم ولما يلفظوا الكلمة كاملة بعد ! وثمة آخرون لم يجدوا شيئاً وعليهم أن يصنعوا كل شيء من لا شيء ..

لهم الأرق والعرق ، والألم والضياع .

وأنا من هؤلاء من تعساء الارض ، الذين يحكمون من وراء القبور ، تحكمهم عظام نخرة، وفضائل عفنة ، فاذا ثاروا جرمهم الآخرون كل شيء ، ووقفوا ضدهم في كل شيء ، يريدون طردهم مـــن دنياهم ، لي دنيا أخرى حتى أترك هذه القـــذارة ترتع فيها الذئاب ، ولكن ليست ليست إلاّ هذه الحياة ، وعليَّ ان أحفظ فيها مكاني بالقوة والصراع وذلك هو قانون الحياة ، ويتراءى أمامي زاردشت هابطاً من الجبل صارخاً « أهذه هي الحياة !؟ أهذه هي الحياة ..؟ اذن أعدها ثانية ! »

أما اذا استكان هؤلاء حصلوا على بقايا الموائد ، على فتات الخبز ، على فضلات الآخرين ، ليت شعري ماذا يخسر هؤلاء بتمردهم ؟ أليسوا بدءاً خاسرين ؟

ان الطوباويين يعتقدون انه إما ان نعمل كل ما نريد أو لا نعمل، الانسان حر أو غير حر ! وهم يتعامون عن الواقع الذي هو صراع حريات ، وان تستر خلف الشعارات البراقة : اخوة .. انسانية .. وأما انا فعيناي تتجولان في صميم الواقع : الحياة صراع حريات !

هذا هو الواقع فلتكن لدينا الشجاعة لكي نواجهه ، لم نغلفه بورود ؟ لم ندعي ان الدم المراق رحيق زهر ونسد أنوفنا كيلا نشم رائحته النتنة ؟ هذه هي الحياة ! من أرادها فله ، ومن يرفضها فليغادرها ، لا ثمة حياة سواها !

هل أغادرها ؟.. انتحر ؟! قال هجياس ان الخلاص يكمن في كل شريان من شرايين الانسان ، مجرد شفرة جيدة ، أو حتى زجاجة خمر وسيارة كما فعل صديقي، ثم لحظات وينتهي كل شيء ، تخرج الحياة مع دم أحمر قانٍ حار ، ولكنه قال ايضاً بانتحارك لن تقضي على شيء ذي قيمة ، وهمس نيتشه في أذن البهلوان الذي يحتضر « لا تخشَ شيئاً فستموت روحك قبل أن يموت جسدك » .

كانت تحدق فيّ بدهشة مبهورة الانفاس، وقد اتسعت حدقتا عينيها ،

وهي تجلس قبالتي ، وهمست بجزع وانفعال « ولكن هـــذا جنون .. لا لن تقدم على ذلك .. انه هروب !

ولاح في خيالي ذلك الثقب الذي أحدثته الصدمة في رأس صديقي ، فوق الاذن اليسرى، والدم يتدفق منه ، وشعرت عندئذ بقشعريرة !

لقد صدقت وردة ، فليس الانتحار خلاصاً ، ولكنه هروب ! غير أن هناك انواعاً أخرى من الموت ، لقد فهم الناس الموت خطأ على انه نوع واحد تصبح الجثة بعده عفنة يتولد عنها الدود ، ولم ينتبهوا إلى ان الجسد قد يصير جثة يسعى فيها الدود وهي تنتقل بينهم وتلامسهم ، ولقد أحسن سارتر التعبير حين دعاهم « موتى بلا قبور » مات شعورهم وإحساسهم بالحياة فقدوا المبرر فعاشوا في لامبالاة هي الموت الفظيع ...!

ان الذي يقذف بنفسه من الدور العاشر ، أو الذي يتجرع سماً ينهي كل شيء ، لن يشعر حتى بالخلاص . فلا ثمة خلاص ، ولكن الموت بلا قبر لا يتيح هذه الراحة ، فهو موت تظل فيه مهدداً بالشعور بأنك ميت !

وأخذت أتخبط في الشوارع على غير هدى، كل همي ان أمشي ، وأمشي وسعير نار تأكل أحشائي ، لم أكن أفهم شيئاً . واخترقت شارع عمر المختار محترقاً أخشى ان يلامسني أحد فتحرقه نار البركان الثائر في أعماقي ، ثمة سؤال يطن في أذني :

هل أضع حداً ؟ ولم أضع حداً ؟

وحانت مني التفاتة نحو مدخل شارع العقيب . كان هناك حشد من الناس وكان وسط الحشد رجل ، رجل صادق يقول ما يراه وما يعرفه لذا فهو مجنـــون .

كانت الصيحات حوله تتعالى : « شركة » « قاويطة » وكان صوته يضيع خلف قهقهات الشفاه الغليظة ، وقرقعات الأمعاء الملأى، واقتربت مـــن الحشد ، وكان المجنون يتحدث ، وكانوا يضحكون في الوقت الذي كان

ينبغي فيه البكاء ويتأسفون على المجنون في الوقت الذي ينبغي ان يتأسفوا فيه على أنفسهم، انهم يمارسون سوء طوية بشكل فظيع ، حقائقهم تعيش في الخارج ، كل واحد منهم يحتاج لأن يقال له : أنت محق، ليرد هو ايضاً ، وأنت محق ، أما المجنون فانه يقول لنفسه : أنا محق !

وأتاني صوت المجنون يتحدث.

- يا ديدان الارض ، يا أعشاب المستنقعات ، أفيقوا لأنفسكم ، انتبهوا إليّ جيداً فاني محدثكم بحديث غريب عجيب ، ولكنه الحق كل الحـــق !

وصرح أحدهم ساخراً : وهل يعرف المجانين الحق ؟!

وواصل المجنون حديثه: بالأمس كنت أسير ، بالامس كنت لا أسير بالأمس جاءني خبر عجيب ، طوفان من نوع جديد ، لقد فاضت جهنم على الجنة فاحترقتا معاً ..

حسناً أيها البؤساء ، لا شيء لديكم تعملونه بعد ! لا شيء تملكونه ، ضاعت الجنة، احترقت الجنة .

ضاعت الآمـــال !

حقيقة كنتم تأملون أكثر مما تعلمون ، كنتم تغمسون الخبز في الوحل وتحلمون بأواني الذهب والفضة ، وكنتم تديرون رؤوسكم منتشين مع خيال حورية، وعلى شفاهكم لذة الخمر السلسبيل، لقد احترقت أواني الذهب ، احترقت الحوريات ، تبددت الخمر في البحر ، لقد ضاعت الجنة من أيديكم !

وتساءل أحدهم : وهل نبكي ؟!

ورد المجنون : كلا .. لا تبك! لقد بكيتم كثيراً وعندما احترقت الجنة ربحتم شيئاً آخر هو ان الأرض لكم ، اخلقوا منها جنة أو جهنم ،

فقط لا تأملوا بعد في الجنة فانها ضاعت .

يا ديدان الارض يا أعشاب المستنقعات جئتكم بخبر جديد !
لا تأملوا بعد بل اعملوا ان كان الامل محالاً فلا داعي له ، وان كان ممكناً فينبغي أن يُعمل ..

يا ضعفاء الارض كنتم تدقون على جنة أحلامكم لوحة كتب عليها « لا يدخلها الاغنياء »

والآن أين جنتكم لقد ضاعت، ولم تبقَ غير جنة واحدة هذه الارض ولكن مكتوب عليها « لا يدخلها الضعفاء »

يا بؤساء الارض بالأمس جاءني خبر من السماء قرآن يتلى يقول : « ان الارض يرثها عبادي الصالحون » الاقوياء، والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف !

يا من تحملون العلم في أسفار ، يا من تتبعون في حمله القوا به في هذا البحر ، والتفتوا إلى العلم هنا في الحياة ومن لا تدهشه الحياة ، من لا يستطيع ان يستخلص من الحياة علماً فهو أجهل الجاهلين ، ان كتبكم تقدم لكل حياة ميتة تجارب محنطة ... عيشوا حياتكم ..

واستدار المجنون، واندفع الحشد وراءه يتصايحون ويجذبون أثوابه ، إلاّ أنه لم يكن شاعراً بهم ، كانوا كالبعوض تؤلم لسعاته ولكنه حقير لا يقدر على شيء وسار صامتاً ، والكبار يدفعون الصغار ليتحرشوا به . وكان المجنون يعقد يديه وراء ظهره ، وينقل خطاه بصمت ثم فجأة أمام « السوق المختار » استدار وواجه الحشد صارخاً : اسمعوا لقد جاءني خبر جديد !

لقد مات الشيطان !

الآن كان الملائكة يرفعون جنازته ، ولكن صه ان الملائكة لاحقون

به لأنه ليس لديهم بعد ما يعملونه ، لقد مات الشيطان ، مات من كان يوفر لهم العمل ، وسيتركم الملائكة والشيطان إلى أنفسكم ، فحذار حذار ان تخترعوا شيطاناً ، حذار حذار ان تخترعوا ملائكة ، ان تفعلوا ما فعله قوم موسى ، ان تقيموا أصناماً لموتى !

مات الشيطان وقعت عليه أوزاركم التي علقتموها به فقتلته .

وأسر إليكم الآن لقد حزن الملائكة من أجله او لأنهم لاحقون به ، مات الشيطان ، وقضى الملائكة غماً ، وفزتم أنتم بأرضكم .. وبحريتكم ، فحذار أن تفرطوا فيهما ..

ووقف صامتاً يجيل النظر ، وكانت هناك رجل يحمل «كرشاً» مستديراً فاتجه اليه ، وتحسس كرشه بيده ثم سأله : ماذا هنا ؟

ولم يجب الرجل ، فضرب المجنون كرشه حتى كز الرجل من الألم وصرخ المجنون :

— هنا أمعاء قذرة مملوءة طعاماً ..!!

وحدق في الحشد ثم صرخ وهو يقبض على خناق الرجل . والرجل يحاول التملص والآخرون في قهقهات متواصلة ، سعداء بالمشهد .

وقال المجنون : ها هو اللص ! أتريدون اللص ؟ ها هنا ! انه يأكل ارزاق غيره ، ها هنا اللص ، ان كنتم عادلين ما جزاؤه ؟ أليس عدلاً ان يبقر بطنه وتبعثر أمعاؤه ؟!

ودفع الرجل وتوجه إلى الحشد .

— ليس اللص من يسرق ليشبع وانما من يشبع ليسرق ، وها هو قد شبع ليسرق ؟!

ليس المجرم من يقتل انما من ينجب تعاسة وشقاء .

هلا سمعتم !؟ فقد بلغت ..

واصفر وجه الرجل ، وانزوى حتى حانت له الفرصة فولى هارباً يتقدمه بطنه المنتفخ ، وحدق المجنون في الوجوه وأشار لهم بسبابته قائلاً : —

— وصيتي الاخيرة ، عليكم اللعنة ، وصيتي الأخيرة لا تملكوا شيئاً ولا تقنعوا بشيء فــان القناعة قبر ، لكي تكون حراً لا تملك شيئاً ولا تأخذ أكثر مما تحتاج إليه ولا ترض بأقل مما تحتاج ... وصيتي .. عليكم اللعنة لانكم عقلاء جداً أكثر مما ينبغي ...

وأسرع يولي الادبار ، والضحكات تلاحقه وأنا واقف أرقب ، لقد فقدت القدرة على التمييز أيهما المجنون ، الحشد الصاخب ، أم الرجل الثائر ، ام أنــا ؟.

كانت لدي أفكار تعتمل في رأسي أود البوح بها ، ولكني لا أملك شجاعة ذلك المجنون كنت أود القول صارخاً في الجميع « انه مستنقع راكد يجوس فيه البعوض . تغطيه طبقة لزجة تمنع الهواء من التسرب لاعماقه التي يجوس خلالها هادئاً وادعاً مطمئناً ..

هذا هو مجتمعنا : مستنقع ، وهؤلاء هم أناسه ديدان تسعى ، تلتقط الفتات ، وتنكفيء على ظهورها في نوم عميق ، مستنقع متسوي الاوهام والافكار القذرة ، وديدان تزحف دون أن تفكر وأنا في ظل هذه الرتابة ، وهــذا الركود اختنق ، اختنق بالدعة بالطمأنينة ، بالرتابة المقيتة ، تخنقني حكمة الشيوح وفضائلهم ، تخنقني أوهام العجائز حول مواقد النار ، تخنقني فكرة انهم حصروا كل شيء ، ما كان وما سيكون ، وأخذوا خلاصته ولم يتركوا لي إلاّ ان احفــظ هذه الخلاصة ، انهم يعدون لي كــل شيء ، يرسمون لي المستقبل نحن لا نعيش حياتنا ، نحن كما يريدون نكرر حياة الشيوخ ، ونترسم فضائل العجائز .

ليس لنا بعد ان نريد ، بل ان نفعل ما يرضيهم ، والأمر لن يطول على هذا الحال حتى نفقد القدرة والرغبة في ان نريد ، ومن ثم نفعل فقط ، ونضيع

خلف افعل .. لا تفعل ، ان نكون عجائز في شبابنا ، ان تحمل أجدادنا أبد الدهر على ظهورنا تلسعنا سياط نواهيهم وتسحقنا فضائلهم التي ليست فضائلنا ان فضيلتنا ان نعيش سنناً ، وان اكبر مغفل من يقول : الفضيلة فضيلة الكل وأما انا فأقول هذا خيري وهذا شري ، وعندئذ يخرس القزم ونجلد القائلان بأن الخير خير الجميع والشر شر الجميع ، هكذا قال نيتشه أو زاردشت .

أن يكون العجز فضيلة! ان لا نستطيع فعل شيء فضيلة ان نتركه، وأنا أقول فضيلة أن تحاول فعله، ان الحياة تبنى على المحاولة لا على النظام الصارم الدقيق المعد لكل الظروف ، ان هذا النظام غير صالح اطلاقاً .

ان يكون عجز الشيوح فضيلة نقدسها ، ذلك ما يقدمونه لنا ، انهم لم يكتفوا بأن ألقوا بنا إلى هذا الوجود ، ولكنهم يريدون أن يتحكموا في وجودنا ايضاً . مسكين مجتمعنا ، مجتمع الشيوح والعجائز ، مجتمع هرم يحمل أثقال سنين عديدة وتراثاً متمزقاً قد اعيا ترقيعه .

ان الالواح القديمة المحمولة على الاكتاف يريدونني ان استلم حملها ، وان كتفاي لا تحمل إلاّ ألواحي ، فلنحطم الالواح القديمة ، ولنحمل ألواحنا .

ان ما يعترضنا جيل متراكم من خرافات العجائز ، وان الحمل ثقيل يريد آباؤنا التخلص منه لنحمله على أكتافنا ، وان مهمة طرح هذا الجبل المتراكم من أكداس الخرافات ومن أكوام الاقاويل لأصعب من حملها ، ان الطرح يحتاج لشجاعة ولقوة ، فلنكن شجعاناً ، ولنكن أقوياء ، ان مخلفات الماضي تسمم أفكارنا وتعقد حياتنا ، وان التمرد على فضائل العجائز لانجح سبيل !

ان فضائل العجائز عاجزة هرمة ، وقد بلغ بها العمر عتياً ، ولن يضيع شباب وقوداً يبعث الدفء في فضائل الشيوخ المقرورة ، وأساطير العجائز المرتعشة المتهالكة ، فليكن شبابي لكي تحترق هذه الفضائل جميعاً ، ولكي أعلن : ان الفضيلة فضيلتي !

لقد ضيع الشيوخ جيلي ، وقدموا له مدنية زائفة ، ولم يتغير حالنا ، لا يغرنك ان تنتعل الفتاة الكعب العالي ، ان فتاتنا تبذل مجهوداً جباراً لكي تختار الفستان الذي ترتديه . ولكنها لا تبذل أي مجهود لكي تختار الافكار التي تؤمن بهـــا ..

وتقف أمام المرآة ساعة ، لكنها لا تقف أمام نفسها ثانية ، لقد كانت أفكاري سبباً في ذلك المحال الذي فصل وردة عني ، وجعلنا غريبين ، وان كانت في دخيلة نفسها مثلي إلاّ انها تعيش هروباً مستمراً ، وخوفاً مستمراً من فضيلة العجائز .

ما زالت فتياتنا في ظلام تعيش مثلما عاشت جداتنا في ظلام الجدران الاربعة ، والعباءة ، بدون أفكار عالة في تفكيرها ، عالة في حياتها ، يفكر لها الآخرون ، ويؤمن لها الآخرون ، ان اختيار الازياء لا يترك لها فرصة كي تفكر ، انهن جداتنا يرتدين « الميني جيب » ، نصفنا الثاني مشلول !

ولا يغرنك ان ترتدي الملابس العصرية ، فما زال الشاب منا يحلم بأن يمتلك امرأة كما يمتلك خروفاً ، وان يقود سيارة ، ويسكن شقة ، وينتهي الامر عند هذا ، ما اصغر وما أحقر هذه الاهداف ، وما أصغر وما أحقر هذه النفوس ! !

وانا أضيع خلف هذا الوضع المزري ، لقد اكتشفت بطريقة ما ، وضعي الزائف قيامي على غلط ، وجودي اللاشرعي ، ان كل ما قمت عليه كان زائفاً عالماً من كرتون أعد بمعرفة الشيوخ والكبار ، عالمي اذن يا صديقي زائف ! ألم يقتل هذا الوضع صديقي ؟! ان فضيلة العجائز تحكم كل شيء ، والشباب ان وعوا ذلك يدفنون أنفسهم أحياء ، أو يحيون أمواتاً .

لشد ما يتمسك هؤلاء بالحياة ، ان هؤلاء العجائز يريدون اقناعي بأنهم لا يموتون وان مات الجسد ، يريدون اقناعي بأنهم خالدون حتى أظل اترسم خطى أصنام من لحم ودم ثم أصنام من وهم تعيش معي ، أعيش لها حياتي ،

والمستقبل السعيد ، والجنة . أو جهنم كل ذلك مشروط بفضائلهم .. فليذهب كل أولئك إلى الجحيم ..

سأعيش فضيلتي !؟

ان هذه الاصنام تستحق ان تكنس ، وأن تحطم ، لربما يتحرك هذا المستنقع الذي تحافظ هذه الاصنام على ركوده، وان تطرد الامواج المزبدة أسراب البعوض ، وأن تجري مياه جديدة محل الآسنة المتعفنة ، وان تندثر فضيلة العجائز ، وتذهب الأفكار القذرة مع المياه النتنة ، قال نيتشه الالواح لا ترقع أبداً اذا تحطمت فلنستحدث غيرها ! فلنكن مبدعين دوماً ان كنا نريد الحيـــاة ..

ولنفعل ما نريد .. شرط أن نعرف ما نريده !

كنت أود ان أصرخ بكل هذا ليتجمع رواد شارع عمر المختـــار وليسمعو ..

ولكن لم تكن لدي شجاعة ذلك المجنون ، رباه أيكون من يملك الحقيقة مجنـــون ؟!

لقد صدق ياسبرز حين رأى أن المجنون والطفل أصدق تعبيراً من المشكلات ..

ولما كنت لست بطفل ولا مجنون فلقد لزمت الصمت ، واستدرت على عقبي أحمل خيبتي وفشلي ..

(١٢)

عدت أحمل خيبتي ، وتصلبت قداي ، وكلمات ذلك المجنون تقرع رأسي « مات الشيطان ، وقعت عليه أوزاركم التي علقتموها به فقتلته مات الشيطان، وقضى الملائكة غماً ، وفزتم أنتم بأرضكم ، بحريتكم فحذار حذار أن تفرطوا فيهما ...؟! »

مات الشيطان ، وكل شيء للموت ، نعم يا هيدجر الانسان وجـود للموت. كانت علبة من الاقراص أمامي ، خمسة منها لفيلة بأن تقضي على ثور ضخم ، وكنت أحدق في الاقراص المبعثرة ، والعلبة الملقاة ، وكان طيفها يلم بي ، وعيناي تحدقان في المصباح المضيء ، ويتملكني شعور غريب ؛ غريب ؛ وبما هناك أمل ؟! يتسرب إلي هذا الشعور خلف ركام الاحداث التي مرت بسرعة في ظرف أيام ... والغد عيد !

ولكن كانت كلمة أمل قد فقدت معناها ، وكنت أفقد معها كل شيء ، نسيت انني أنا الذي أمنح هـذه الكلمة معنى ! كم يكون شاقـاً حين تتبين ان كل شيء يرجع إليك ! !

دلفت إلى حجرة مكتبي ، وأخذت ورقة وقلماً ، أخط كلمات ... وكانت الضحكات تتردد على مسمعي ، كان الجميع سعداء ماعداي ، صدقيني فقدت القدرة على الضحك ، صحيح قد أفتح فمي وأكشف عن أسناني فيخرج صوت .. ولكن لو تعلمين انه نوع من البكاء ، وليس الضحك كلا ولا البكاء .. ليتني أبكي ! فان الدموع كانت تتحجر في مآقي ، واني

اتحدى أولئك المتفائلين أن يقدموا سبباً واحداً لا ينقلب ضدهم ! !

صحيح قد تم ذلك في بضع ثوانٍ ، أعني انكشاف الوهم ووضوح الغلط القائم عليه ، ولكن مقدماته كانت منذ أمد بعيد ، منذ أمد بعيد وانا أخشى هذه اللحظة : لحظة الانكشاف التي لا تبقي ولا تذر ، منذ حين وانا أحس بأني مقبل على كارثة ، ان البركان قد يظل سنيناً عدة يجمع شتات واه ، ولكنه في لحظة يثور ، وفي لحظة يكتسح كل شيء ، ولقد اكتسح بركاني الثائر كل شيء : أوهامي.. آمالي. ولم يبقَ من كل هذا إلا رماد وكلمة تقولينها دون أن تفصحي «مجال » وإذا كان (أنباء وقليدس) قد قذف بنفسه في فوهـــة بركان ، فأنا البركان نفسه !

لكم أحب القوة حتى ولو حطمتني ، لكم أحب المواجهة حتى لو قضت عليّ لكم أود أن تصرحي بذلك علناً وتصرخي في مواجهتي ليتردد صداها في أعماقي مجتثاً الاخضر واليابس « محال » اما ان أظل هكذا أتدحرج فذلك أمر لا أطيقه ، بين أمل ضائع ، وضياع مؤمل ، قد لا يكون المحال محالاً ، ولكنها لا تعدو أن تكون : قد ..

وعلى صليبي أظل معلقاً بين الحياة والموت .

كان الستار ينزاح أمامي عن دعوى الانسانية ، وكان سوق « بوغولة » عبارة عن مجزرة ، كنت اسمع أصوات الآلات تشحذ عليها السكاكين استعداداً للقتل الجماعي ، وكان الناس يستعدون وعلى شفاههم ترفرف شهوة تتعطش للدم ، وكان قناع الانسانية يسقط كاشفاً من أنياب ذئاب ، وبعد وقت قليل ... غداً بالتأكيد سيقضي على أكثر من نصف مليون حياة ...!

تقولين انها نعاج! ولكن صدقيني ليس ثمة فرق بين الدم المراق منها وبين دم الانسان ، لقد أدركت هذا وجرح صديقي ينزف ، ويداي تخوض في دم زميلي وسائق السيارة التي وقع لنا الحادث فيها ، كان الدم ساخناً لزجاً ، وكان نفس الشعور يخالجني ويداي تخوضان في دم الشاة التي ذبحناها في«الكبيرة ».

غير اني لست ضد هذا ، لست نباتياً من أتباع غاندي ، بل أحب المواجهة ، مواجهة الواقع ، وكما هو بدون رتوش ، أو زخارف أو شعارات خادعة ، قال هوبز « الإنسان ذئب للانسان ، وأقول ان « الانسن إنسان لا ملاك ولا شيطان » .

ولا ينسى مدعي الاخوة والانسانية ان يفحص مزلاج دكانه عشر مرات وأن يتفقد نوافذ بيته قبل أن يأوي إلى فراشه، وبعد هذا يتشدق بالانسانية الخيرة والاخوة ، كان روسو مجنوناً حين ادعى هذا أو كان منافقاً ...

كان اليوم جمعة ، وكنت قد خرجت لشراء بعض الحاجيات ، ولكني نسيت ما خرجت لأجله وانا أحدق في السكاكين وهي تشحذ على آلات كهربائية حديثة ، كانت دعوى الانسانية والاخوة والرحمة سلاحاً يتشبث به الضعفاء . كانت أخلاقاً مسيحية متأثرة بأنوثة مريم ، وكان نيتشه يصرخ في أعماقي « الفضيلة قيد يصنعه الضعفاء لكي يتحكموا في الاقوياء » . ان القوة هي الفضيلة الوحيدة في هذا العالم ..

كن قوياً تكن فاضلاً من كل الوجوه !

لقد مات نيتشه مجنوناً ، ولكن سارتر شاخ عاقلاً ، وأصبح هرماً وها هو ينضوي تحت زيف الانسانية والاخوة ، في اليوم الذي أفقد فيه شجاعتي سأعلن موتي !

أأنا معقد وشاذ حين أقول هذا ؟ كيف يحكمون ؟..

الحكم دائماً من طرف واحد ..

لكم أتمنى ان تكون هناك إنسانية . واخوة وسلام حقيقي ، ولكني لا أهتم إلا بما هو واقع ، والواقع يصنع المستقبل ، والواقع بعيد كل البعد عن الاخوة .. وعن الانسانية .. والعدالة والسلام ، الواقع منطقه الوحيد القوة ..

فما أهمية ان نتمنى ونغرق في تفاؤل ساذج ؟!

أريدك ان تخرجني من التمني ، لانه اما ممكن فينبغي ان يحقق ، واما محال فلا داعٍ له فهو وهم.. وانا أجاهد كيلا تقعي في أوهام الضعفاء والمساكين والحالمين بالجنة ..

انا أردد كلمات مجنون شارع العقيب ذاك !

أهو اذن صادق ، ام أنا مجنون ؟!

ربما هذا ، وربما ذاك ..

لم يكن في هذا العيد ما يثيرني ، وانا أتجول في الشوارع إلاّ ثغاء الشياه مربوطة في أوتادها ، كان صياحها يملأ الدنيا حولي ، ويعكر سكون بنغازي بعد منتصف الليل ..

وكنت أفكر ، غداً صباحاً بعد العاشرة ستزول كل هذه الاصوات ستعدم ، ولن تصيح هذه الشياه ثانية !

وهنا كنت ابتسم رغماً عني ، كان صوت والدتي يطن في أذني حين رأت الخروف الذي اشتريناه ، إذ قالت : انه لا يستطيع حملنا يوم القيامة ! وكتمت قهقهتي في أعماقي ، ان الخروف سوف يتشتت في جسمي وفي دمي . وبقاياه ستندثر مع قاذورات الارض ، ولن يكون بعد ثمة خروف .

ولكن لم أقل لك هذا ؟

وانت تغطين في النوم في دارك الجديدة ، وانا أنسج حولي من أفكاري وثاقات تشدني إلى صليبي.. تلك الافكار التي أرعبتك ، وجعلتك تلوذين بالفرار .

عليّ الآن ان أنام ، فعطلة العيد قد انتهت ، وغداً لديّ ثلاث حصص في المدرسة الثانوية ، وأنت لا أدري عنك شيئاً منذ حملتك السيارات ذات يوم منذ عام . وعرفت حينذاك ان القطيع قد كسب الجولة وأعلن بشكل رسمي في مكبر الصوت من قبل شيخ عجوز انك قد أصبحت احد أفراد

القطيع .. أما انا فلا زلت تائهاً ...

كان الليل يجثم ، وأنا أفكر ، وطيفها أمامي ، وسيجارة في يدي ثم غلبني النوم ، والافكار تتضارب في رأسي ، وتراءى لي انني في جهنم، أتقلب على الصخور الملتهبة . كان لسع النار حقيقياً فاستيقظت فزعاً لأجد السيجارة قد سقطت على صدري ، ونهضت متثاقلاً .

كان ثغا الخروف يصلني في حجرة نومي وكنت أعرف مصيره، ولكنه لا يعرف ، وخرجت ألقي عليه نظرة « مسكين يعيش آخر لحظة كأنه خالد أبداً » كان يجتر بتكاسل ، وبين الحين والآخر كان يصيح ولمحت نظرة هادئة في عينيه، وعندئذ انتابني غثيان مريع فأخذت أتقيأ كي أتخلص من تلك الفكرة التي تمركزت في أعماقي .

« يعيش لآخر لحظة كأنه خالد أبداً » .

وفي هذه الاثناء كان اذان الفجر يشق السكون متوسلا الى الله ومرت بذهني فكرة أرعبتني « ألا يمكن ان أكون انا ايضاً أعيش آخر لحظة كأني خالد أبداً ؟ ألا يمكن ان يكون هناك في السماء من يسخر مني وينظر إلي ولحظتي الاخيرة تدنو كما أنظر انا إلى هذا الخروف الآن ...؟؟!

كان صاحب القطيع يفرع القطيع ، ويجذب لي من وسطه هذا الخروف الذي يدنو الآن من نهايته .. أهذا قدر أم صدفة ؟ !

كان ذلك قرب المستشفى المركزي ، وفي هذه الاثناء كانت سيارة الاسعاف تدخل المستشفى مرسلة عواء منكراً ، كانت تحمل انساناً أنشب الموت فيه مخالبه ، عفواً هيدجر ! مجرد صورة شعرية فانه يحمل موته !

وكانت أفكاري تعقد مقارنة سريعة : ربما هناك صاحب قطيع لا نشعر به وهو ينسل بيننا ويوزعنا ليختار منا من يقضي عليه، ويلتئم بعد خروجه القطيع كأن شيئاً لم يحـــدث ، مثلما كان الناس غـــير شاعرين بخروج صديقي من عالمهم ، لقد نسيه الجميع وحتى أهله المزيفون ، ولم يبقَ إلا

في ذاكرتي ، انا أشعر بنوع من الارتباط معه لان كلينا غير شرعي بشكل من الأشكال .

وأتى رجل من جهة المستشفى يصفق بيديه معلنا عجزه : لقد مات !

يا للهول ! انها فكرة ترعبني ، ان يكون ثمة من يتحكم فيَّ ويرسم لي قدري ، ولكن في مواجهة كل التحديات : كان قدري حريتي وكان شكي يقربني من الله ، لكنه ليس اله الفقهاء والمنافقين ذلك الاله المتعنت !

ها أنا أمسك بالخروف والجزار يجر على رقبته السكين ، ويتفجر الدم ، وأخذت أتفحصه بين أصابعي ، والهواء يخرج من الرقبة المقطوعة في فحيح مرعب ، وكان الخروف ينتفض ويرتعش ثم همد ..

لقد ضاعت روحه ، بل ليس ثمة روح ، لقد هلل القساوسة حين أكد ديكارت ان الحيوان آلة ، وقال فولتير : نحن لا نصدق ان للحشرات روحاً ولا للصرصار ، ولكن ندعي ان لنا روحاً .. هنا الغلط !

أهذه هي الافكار التي أرعبتك ، وأخافتك ، فتلهفت على أول فارس ؟!

أنا في منفى ، أعرف هذا ، لقد خرجت من دنيا الآخرين ، وتمردت على ما قدموه لي ، أريد ان اصنع بنفسي حياتي ، حياة تناسبني مفصله عليَّ لا جاهزة من سوق الظلام أو من أعالي المنابر !

أترين ؟! أفقد كل شيء ..

أحطم كل اناء مزخرف لأعرف حقيقته ..

ولو تعلمين قيمنا تلك الأواني المزخرفة يضع عليها كل جيل طبقاً من الزخارف ، وهناك داخلها الدود يسعى ينهش جسد أجدادنا وكان لسان حالهم يقول : أنتم تعيشون لنا حياتنا ، ربما نحن الموتى وهم الاحياء !

ولكني حطمت الاناء وتبعثر منه الدود ..

كان الحرس البلدي يكتب لي مخالفة ، والناس يصرخون ي وجهي ، بل هم بعضهم بضربي غيرة .

وهناك أوانيهم المزخرفة يواظبون على تزيينها ولا يعرفون أن ما بداخلها ليس إلاّ دوداً، ولم يصدقوني اعتقدوا ان انائي الوحيد الذي يحتوي دوداً .

فباغتُّ أحدهم ، وأسقطت اناءه .

ولكن كان رجل البوليس يقتادني والصرخات تتعالى حولي :

– أنه ملعون لا يمس شيئاً إلاّ وقد انبعث فيه الدود .

لقد صمموا على أن لا يتغيروا ! !

عيد .. !

اشعر به عند الآخرين ، البسطاء في مجاملاتهم، السذج في أساطيرهم أشعر به في ملابس الاطفال المزخرفة، والاكلات الفخمة ..

أما أنـــا ..

فـــلا عيد ..

لأني أشعر بأن وراء كل باب مغلق مشكلات محجبة، لا تراها الشمس ، أية مأساة أن يكون نصفنا عاراً وأتم وجوده ! ؛ ووراء كل باب عشرات المشكلات تحسب وجودنا مشكـــلة، كل شيء بقدرة قادر ينقلب لدينـــا مشكلة ؛ الموت مشكلة ، الحياة مشكلة ، الزواج مشكلة، الولادة وحتى الصداقة ..! وجميع هذه المشكلات تتحطم على أكتاف تعساء يدعون السعادة ، ويتمسكون بما هو سبب تعاستهم ، متى يفهمون انهم لم يأتوا إلى الحياة كي يشقوا ! ؟وانهم يعقدون أبسط الأمور ! .

ليت قومي يعلمون لربما تنقشع الغشاوة عن عيونهم ، فليس ثمة إلا حياة تحيا ، وإلى ان يفهموا أعيش في منفى !

كان الاطفال يمرحون في الشوارع .

زهوراً بريئــة ..

قال النبي الكريم : « يولد الطفل على الفطرة فيهوده أبواه أو ينصرانه » متى يتوقف الكبار عن التدخل ؟!

يصبح الطفل شريراً حين يكتشف أن فضيلته تختلف عن فضيلة أجداده فيبدأ ينافق ويخادع ويصبح شريراً ، وكلما كان الفرد اجتماعياً كان عقله فارغاً ، هكذا قال شوبنهور ..

وأما الذي يصنع حياته فلا يحتاج لأن يكذب ولا أن يخادع ، انه قوي بما فيه الكفاية ، شجاع إلى درجة الحكم على نفسه ..

ولكن الذي لا ينافق ولا يخادع ليس اجتماعياً ، والذي هو فاقد الشجاعة ومنزو خلــف مومياء الاجداد هو الاجتماعي الكامل.. ان الذي اختار الحرية اختار المنفى !.

كنت أذهب إلى مقبرة « خريبيش » وأحفر قبراً ، وأخرج منه العظام وأنسقها بجانب بعضها البعض ، وأحادث نفسي : كيف تملي علي هذه العظام حياتي ، كيف تصنع لي قيمي ؟! كانت العظام عبارة عن فوسفور ومعادن أخرى في طريقها إلى التحالل، وربما نحن أشبه بعابدي الاصنام ...

وألتقط حجارة صلدة ، وأحاول تحطيم الجمجمة لأعرف كيف هي متكورة وأضع أصابعي في الحفر التي كانت عيوناً وأنفاً وفماً ، كانت العظام تحت سيطرتي أعبث بها بما أشاء ، وكان الآخرون تحت سيطرة العظام تعبث بهــم !

لقد عاشت هذه العظام حياتها ، وسأعيش حياتي كما أريدها .

ولكن ما تلقيته في البيت ، وفي الشارع ، والمدرسة كان يلقي بثقله أمامي وكان عليّ ان أكنس هذا كله كي ابدأ حياتي الجديدة .

كانت معجزة ان انتبهت إلى ان ما تلقيته ليس هو الحقيقة . كانت معجزة

ان انتبهت الى ان الآخرين قد أعدوا لي حياة يرتضونها ، فتمردت وحطمت حياتي ، ونظفت نفسي لاعيد بناء حياتي في منفاي المختار حريتي !...

وفجـــأة ...

بدت لي كرفيقة في معاناتي القاسية .

وشريكة في وحدتي على ذرى الابداع .

وداعبت الابتسامة شفتي .

وانبعث الدفء في أعماقي المقرورة من صقيع الوحدة .

وتحركت في ينابيع الابداع جياشة هادرة .

ولكـــن !

كان ذلك وهماً ، بل لست متأكداً حتى انه كذلك ، لقد كنت طعماً جيداً سرعان ما سحبوه حين أوشك أن يفلت منهم ، كان ذلك يعني ان أتنازل خطوة ثم لن أتقدم أبداً ، فسأُثقل حتى الموت ! ! وعدت أتخبط من جديد بعد أن فقدت النجم الذي برز فجأة يضيء طريقي ، وعادت البراكين تزمجـــر في أعماقي والعواصف تجتث الأخضر واليابس ، وشعرت بأني مشدود إلى صليبي ..

اذن لا عيد في الخارج

كل شيء يحتضر ..!

كانت عيناي تتجولان بحثاً عن العيد ، ولم يكن ثمة عيد، كان الاطفال يمرحون ، وكنت أشعر بلا انتماء ، وغربة .. ويضيق العالم بي، وتتسع هوة في صدري ....

وأتنقل في الشوارع التي كنت أتدحرج على أرضها طفلاً ، وأعبث بأوحالها وأحجارها ، وآنذاك كان الكبار دائماً على استعداد لتقديم النصيحة

مجاناً ، فهم يملكون فائضاً منها لا بد أن يورثوه ، وانا أكره الكبار ونصائحهم لو عرفوا انهم أنفسهم نصيحة تشير ان لا أستمع إليهم ...

قلت لي يوماً ان مجتمعنا مريض ، وقلت لك دعيه يموت ، وهيا لنبني مجتمعنا ، لنبني عالمنا الخاص ، ان الترقيع لا ينفع في ذلك الجدار المهتري ، ولا تعيري سمعاً إلى الذين يجلسون خلف مكاتب أنيقة وهم يتجشأون بعد أكلة دسمة ، ومن ثم يتقيأون على الورق كلاماً نتناً عن العودة للماضي .

وكأني بهم لم يسمعوا ان العالم القديم مات !

وكأني بهم لم يسمعوا ان الامس قـــد ولى ولا سبيل إليه ، صدقيني انهم لا يفقهون ما يقولونه .

العالم القديم مات .

أهناك من لم يسمع ؟!

أهناك من يسوف ؟!

حسناً دعيه يغط في الماضي غارقاً في أحداثه ، صائلاً .. جائلاً فاتحاً .. غازياً .. دعيه ينسج أحلامه كخيوط العنكبوت لتخفي عنه اليوم ، ولكنه حتماً سيصطدم بالواقع وعندئذ تتكرر نهاية صديقي ، انتحاره بشكل ما.

ومن وراء مجلدات التاريخ ينبري بعضهم لتفسير الضياع . وهم لم يعانوه انهم متفرجون من الخارج ، فالأمر إذن لا يعنيهم لقـــد عاش هؤلاء حياة كافية مترفة ، أو شقية مستكينة ، ويجلس أحدهم على كرسي صنع في ألمانيا ويرتدي جبة من صوف انجليزي فاخر ، ويتحدث في مكروفون صناعة أمريكية ومن خلاله يلعن سلسفيل الافكار المستوردة لأنها في رأيه سبب الضياع ناسياً ان الافكار لا تستورد وانما تنبت حين تجد التربة ملائمة ، فمهلاً يا .. يا صاحب السعادة .

ان الضياع هو الذي جعلني أتلهف على هذه التيارات لعلي أجد الحل ،

وليس العكس ، لقد ولدتم أنتم الكبار في الضياع ، قدمتم لي عالماً صنع بمقاييسكم ونسيتم أن لي مقاييسي. فأصبحت أتأرجح وسط ذلك الفراغ ..

كان الفراغ يتمثل في أن ما تعملونه ليس هو ما تدّعونه .

وكنت أتخبط بين أقوالكم وأفعالكم ، وكان الأمر يستدعي رفضها جميعاً أقوالاً وأفعالاً ..

وأصبحت في ضياع لأن العالم الذي أريده والعالم الذي يجبرني عليه الكبار على طرفي نقيض ..

ألم يفهموا بعد ؟!

لن يفهموا ...

ان الاعمى لن تستطيعي اقناعه بأن الاخضر أخضر، والطبيب مهما كان صادقاً لا يشعر بما يشعر به المريض.

فمتى يعيد الكبار النظر ؟!

متى يفهمون أنهم سبب الضياع ؟!

أهناك من لم يسمع ؟ أهناك من يسوف ؟!

انهم الكبـــار ...

حسناً دعيهم يغطوا في نومهم ، ولنتقدم نحن لنصنع حياة تناسبنا ان تكون شعلة تحرق وتحترق ولكنها تضيء وسط عتمة الظلام ، لنكن كعود الكبريت وجوده في احتراقه ، لنكن حجراً يلقى في ذلك المستنقع ليلغي ركـــوده ..

ولـــكن ...

أيها الطعم اللذيذ

ها أنا في المنفى وحدي أعانق صليبي

فلقد خلبت لبك أضواء الواحة ، وأثرت الاستلقاء في نشوة تحت ظل ظليل ، وبين ذراعي كبش من القطيع دماغه أوراق بنكنوت ، مغمضة عينيك ، تحلمين بالثياب الفاخرة ، والزوج الأنيق وأنا هنا في الصحراء تحت لهيب الشمس وزئير العواصف مشددوداً إلى صليبي .. وحدي ضائع مغ ذكريات ..

لقد آثرت الانقياد عن المواجهة ، كنت معي ستخسرين كل شيء ولكنك ايضاً ستفوزين بكل شيء : حرية .. وكيان انساني ، ولكن أيها الطعم الجميل كنت تبحثين عن الراحة لا عن المعاناة ، عن مواصلة للسلسلة الابدية في الوقت الذي كنت أضع فيه هذه السلسلة تحت مطرقة الشك .

كان النهار الجديد يهم بالولوج في عتمة ما قبل الفجر ، وكنت في حالة هدوء تعس وبائس ، وكنت أفقد أشياء تنسل بهدوء لتتركني أواجه حريتي ..

صديقي مات وانتهى ، فلقد أفقدته اللعبة رشده ، وأنا كشفت اللعبة منذ البداية ، وأنت تواصلين امداد اللعبة بالوقود فطفلك الثاني في الطريق ، لقد اخترت أنوار الواحة عن ظلمة صحرائي ، دفء الجموع عن صقيع الوحدة.

وكنت أفقد كل شيء ، ولا شيء يقنعني ، كنت نظيفاً كما ولدتني أمي . وكانت حريتي تشع في أعماقي كما يشع النهار ، وفي قمة يأس كنت أملك امكانية ان أحوله إلى عمل ما ، ان أرمي بآخر ورقة دون وجل أو تردد ..

وتثاءب الليل ، وولجه النهار متردداً ، وأغمضت عيني جالساً أسترق لحظة نوم ، وخيالها يطوف بي يلقي في نفسي شيئاً من الضعف ويشعرني بحواجز منفاي ..

يوماً ستقع يداها على هذه الكلمات ، وستسرع بها إلى النار لكي تقتل الجراثيم المنبعثة منها ، وتحدق في ألسنة اللهب فرحة ان احرقت هذيان محموم ..

يومها ربما لن أكون موجوداً ، أو موجوداً أصارع شمس الصحراء

ووحدة المنفى، وتنظر إلي الوريقات تحـترق بتشفي ونوع مـن الفرح لانها وجدت من ينتشلها في الوقت الملائم من ذلك العالم الموحش ، وعندئذ تسارع راكعة تحت قدمي الكبش المنقذ تحتمي به من الكلمـات التي تحررت من الحبر والورق وأصبحت ترن في أعماقها . واذا ما أبصرتني فستجمع أطفالها حولها لكيلا يروني ..

تحميهم مني .

لقد أصبحت لعنة .

اهذا إذن ما يسمونه بالنهاية ؟ أو الموت على الصليب ؟!

ويختلط الأمر عليّ، وتتداخل الطرق أمامي ، وأجد نفسي من جديد في مفترق طرق ..

حـر ...

ولكن ماذا أفعل بحريتي ؟؟!

رجب مفتاح بودبوس

بنغازي ١٥ يناير ١٩٦٩م.



فهرس

منشورات
مكتبة قورينا للنشر والتوزيع
شارع عمر المختار - بنغازي ج.ع.ل
هاتف ٩٢٤٨٢ ص.ب ٩٥٥